أُمّ الوَليّ

مجموعة قصصية

اسم الكتاب: أم الولىّ
تأليف: تسنيم فهيد
تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع: 2014/19378
الترقيم الدولي: 978-977-6376-65-6

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من النـاشـر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أُم الوَلي

تسنيم فهيد

مجموعة قصصية

إلى...

«جابرييل جارسيا ماركيز»

كَبيرنا الذي علّمنا السحر

دوائِر

حينـما اسـتيقظت ووجدتنـي نائمـة عـلى الأريكـة، لم أعِ مـا حـدث أو الـذي جـاء بي هنـا. حـين سـألته أخـبرني أنـه لم يشـأ أن يزعجنـي حـين جـاء متأخـرًا ووجـدني غافيـة أمـام التلفـاز. الأمـر الـذي جعلنـي أعـد حتـى الرقـم ١٠ قبـل أن أخـبره أن مـا يقولـه لم يحـدث. أنـا كنـتُ مسـتيقظة حـين عـاد بالأمـس وتناولنـا عشـاءنا معـا وشـاهدنا فيلـمًا ثـم انتقلنـا إلى غرفتنـا وغفونـا بعـد أن مارسـنا الحـب. لكنـه احتضننـي وأخـبرني أني لا شـك كنـت أحلـم بـكل هـذا وأنـه لـو كان يـدري أن أحلامـي تشـمله لمـا خـشى إيقاظـي. لم أُخـبر أحـدًا بذلـك، حتـى صديقتـي المقربة التـي أسـتغلها دومًـا في استشـارات نفسـية دون أن أدفـع لهـا مليـمًا. فقـط حـين خـرج للعمـل، ظللـت أبحـث عـن شيء يؤكـد روايتـه أو يدحضهـا، لكنـي لم أجـد ووجدتنـي أفكّـر في الأحـلام الغريبـة والكوابيـس التـي لا تتـوانى عـن محـاصرتي كل ليلـة، وسـلّمت أخـيرًا بـأن -مـا ظننتـه حـدث- لم يكـن إلا حديـث نفـس أو أضغـاث أحـلام.

صرت أفتح عيوني على اتساعها فجأة وأتوقف عن الكلام وأسأله هل أحلم أم أن هذه اللحظة حقيقية؟. يضحك مني ويربت على وجهي ويُخبرني أني أضع «الحلم» الأخير في رأسي وأفكّر فيه كثيرًا وأن هذا مُرهِق. يحكي لي عن أن الجميع معرض لِما حدث لي وأحيانا لا يمكننا معرفة الواقع من الخيال.

لكن الأشياء التي تُبدّل أماكنها، والأطعمة المطهوة الموجودة في الثلاجة ولم أطهها -بل لم تكن موجودة في الأصل نيئة-، كلامه معي عن أماكن لم نذهب إليها مؤخرًا، جعلني أتهاوى وأبحث عبر المواقع الإليكترونية عما أمر به. الأمر لم يكن سهلًا، فلا يُمكن أن تمر بعرَضين مختلفين. وأنا -على حد ما يقوله- لا أتذكر مواقفًا قد حدثت -وكأن أحدًا أخرج عقلي ومسح بيده تلك الذكريات منه- وأتخيّل أمورًا أخرى بتفاصيلها، يزعم هو أنها لم تحدث. كيف لي أن أسألهم في المنتديات الطبية عمن يفقد ذاكرته وفي نفس ذات الوقت يتذكر مواقفًا واضحة وملموسة لدرجة أنه يؤمن في كونها حقيقية؟!.

كان الأمر ليمر ويكتمل له كما يشاء، لو أنه لم يُخطئ

ذلك الخطأ الكبير، حين شكرني على إزالة البقعة عن قميصه المفضّل الذي ارتداه منذ أسبوع عندما خرجنا لنتناول العشاء مع أصدقاء له. وقتها هززت رأسي وجلست على طرف السرير كقطةٍ طيبة لا أدري شيئًا عمّا يتحدث عنه، إلا أنه واصل محاولاته لتذكيري بما حدث. جلس أمامي على ركبتيه يُذكّرني بالأغاني التي اخترتها لتصدح من السيارة ونحن في الطريق، وعن أني تطوعت بالبحث عن عروس لصديقه «سامر»، وظل يسترسل ويتمادي وأنا أبكي بداخلي وأهز رأسي بعنف وهو يذكرني بجلستنا على الطاولة المفضلة لي في هذا المطعم، وكيف أنه حجزها مسبقًا لموقعها الفريد، وأني هززت يده -عن غير قصد- فأوقع العصير على قميصه، الذي عاد الآن جديدًا بفضلي. هززت رأسي وتكورت على نفسي وبعدما خرج اتصلت بأمي وطلبت منها أن تتصل بي بعد ساعة، دخلت المطبخ وجئتُ بسكين وجرحت ذراعي جرحًا طوليًا. لم أهتم للألم، على العكس كنت أشعر وكأنه تميمتي الوحيدة للنجاة ولمعرفة الحقيقة من الأوهام.

هبطتُ من الشقة -بعدما شغّلت المجيب الآلي- وذهبت لصيدلية بعيدة عن بيتي، وطلبت من الصيدليّ أن يطهر

الجرح ويضمده، لكنّه أوصى بأن يراه طبيب لأنه يحتاج إلى خياطة. وافقته ومددت يدي وأخذت كُتيب إعلان عن أحد الأدوية موجود أمامه، وسألته عن خدمة توصيل الدواء للمنزل. ذهبت لمستشفى عام، كي أخيط الجرح فطلبوا مني أن أشتري المخدر. عُدت للصيدلية، فتعرف عليّ الصيدليّ فتنفست الصعداء قليلًا، رجعت إلى المستشفى ليخيطوا لي الجرح.

كان أول ما فعلته بعد أن دخلت شقتي، هو تفريغ شريط المجيب الآلي بعدما استمعت لمكالمة أمي التي تعجبت من أني لستُ موجودة بالبيت. اتصلت بالمطعم الذي زعم أننا ارتدناهُ سويًا، وأخبرتهم أني فقدت قرطي حين كنتُ أُصلح زينتي في غرفة السيدات، غير أنهم أخبروني أن عاملات النظافة لم يبلغن بالعثور على مفقودات وسألوني عن اليوم الذي فقدت فيه قرطي وعن رقم الطاولة التي جلسنا عليها، فأخبروني أن هذه الطاولة كانت محجوزة باسم «فلان الفلاني» لعشاء عمل. أنهيت المكالمة باتفاق أني سأذهب إليهم لمراجعة الطاولات فلربما اختلط علي الرقم. جلستُ على الأرض وتنفست الصعداء مرة أخرى، أنا لستُ مجنونة ولا أسير حتى في طريق الجنون.

حين عاد في المساء، سألني عما لحق بي، أخبرته بحادثٍ مختلق بعيد كل البُعد عما حدث. في اليوم التالي ذهبت للمطعم وتأكدت من كشف الحجز أننا لم نجلس على تلك الطاولة ولا غيرها خلال الأسبوعين الماضيين. عدت للبيت واتصلت بالصيدلية وذكّرت الصيدليّ بنفسي فتذكرني، طلبت بعض الأشياء غير الضرورية، وحين جاء بها فتى التوصيل، وضعتها مع الكتّيب وشريط المجيب الآلي في حقيبة السفر المُخزّنة تحت السرير كدليل على أني لا أتوهم. بدأت في قلب البيت رأسًا على عقب أبحث عن أدوية تتعلق بمرض نفسي أو عقلي، وحين وجدتها في أحد أدراج المكتب، لم أندهش. وبدأت الصورة تتبلور أمامي، زوجي المريض يضع لي أقراصًا منومة في الطعام ليحكي لي فيما بعد مواقفا لم تحدث. زوجي الذي يعاني من «الذهان» ويحبني لحد الهوس، أراد أن يُدخلني رأسه المريض لأشاركه هلاوسه وأوهامه. زوجي الذي توقف عن أخذ أدويته وارتضى عالمه الخاص، كان كل ما ينغص عليه حياته أني لست جزءًا منه، لذا قرر أن يُدخلني دائرته. كان بإمكاني مواجهته، الثورة عليه، وضعه في مصحة عقلية، لكني لم أفعل أيًا من ذلك.

في اليوم التالي، حين ذهب لعمله، نهضت من مكاني، جمعت كل ملابسي وصوري وحاجاتي الشخصية، كل ورقة تحمل اسمي، فرشاة أسناني وأدوات زينتي. كنت أمحو أثري تمامًا كأني لم أكن هنا، وقررت أن أعاقبه بما يستحق. أنا لستُ زوجته بعد الآن، بل في الأساس لم ألتقيه من قبل، سأختفي وأتركه يتعفن في مرضه وأوهامه، وإن التقيته مصادفةً -بعد سنوات- سأدّعي أني لا أعرف من هو. لن يعرف إن كانت زيجتنا حدثت بالفعل أم أن عقله هيأ له ذلك، طوال هذه المدة.

كانت هذه الصفحات من المذكرات الشخصية -بالإضافة لتقرير مفصّل عن الحالة- أول ما أعطاني إياها مدير المصحة كي أقرأها قبل استلامي لهذه الحالة شديدة التعقيد. المرأة التي تسكن الغرفة رقم ٢١، والتي تبدو مسالمة وبشوشة، مريضة «ذهان». تظن أنها هربت من زوجها المريض بالفصام بعد أن حاول إيهامها بأنها هي المريضة، بيد أنه هو المريض. وتعيش الآن على حد ظنّها في هذا المنتجع المنعزل، بعيدة كل البعد عن البلد التي كانت تعيش فيها مع زوجها. تؤلف الموسيقى وتقرأ لماركيز وساراماجو وتحفظ أشعار سيلفيا بلاث وبودلير. إن اطمأنت

لـك، تحـكي تجربتهـا مـع الـزوج المريـض دون أن تُسـقط منهـا تفصيلـة أو أن تزيـد عليهـا كلمـة مثلـما تفعـل منـذ مـا يزيـد عـن خمـس سـنوات، لا تُظهـر أي تحسـن بالرغـم مـن انتظامهـا في تنـاول الـدواء، لا تمـر بأيـة اضطرابـات جسـدية تؤدي لنشـاط حـركي أو نوبـات عنـف. تعيـش في عـالمٍ آخـر آمـن بَنَتْـهُ لنفسـها وأعجبهـا. لا تسـتقبل زيـارات، ولكنهـا أقامـت علاقـة صداقـة وطيـدة مـع أمهـا التـي تجـيء بانتظـام كل أسـبوع وتلتقيهـا في الحديقـة عـلى اعتبـار أنهـا إحـدى نـزلاء هـذا المنتجـع.

في البـدء زارهـا زوجهـا عـدة مـرات، لكنهـا لم تبـد أي رد فعـل حـين وقعـت عيناهـا عليـه وكأنهـا لا تعـرف مـن هـو ولم تلتقيـه مـن قبـل، بعدهـا توقـف تمامـا عـن الزيـارة وأخبرتنـا أمهـا أنـه اسـتكمل حياتـه بدونهـا.

حـين رأيتهـا في الحديقـة، لم أعـرف -وأنـا الطبيب النفـسيّ الذي درس في أفضـل الجامعـات الأجنبية-أنهـا المريضـة التـي تقطـن الغرفـة رقـم ٢١، شـعلة الضـوء التـي تُنـير عينيهـا، ضحكتهـا الرائقـة، ملامحهـا البشوشـة، نـبرة صوتهـا الـودودة الواثقـة. جعلنـي أظـن أنهـا مجـرد زائـرة، وليسـت مريضـة الذهـان.

الرسُول الغريب
حامل السَكِينة

«لا تحـدّث أحدهـم عـمّا تعـاني منـه. لا أحـد يهتـم، لـن يعـرف أحـد لم يـزر الجحيـم، ماهيـة الجحيـم. الأمـر أكـبر مـن إدراكهـم جميعًـا. وأكـبر مـن إدراكك. ادفـن مـا تعـاني منـه بعيـدًا بداخلـك. ادفنـه لأبعـد مـكان يمكـن أن تطولـه يـد. لا تشـتكِ مـن شيء. ابتسـم للجميـع وهـز رأسـك حـين يسـألون عنـك. ابتعـد .. ابتعـد.. اجـر بأقـصى مـا اسـتطعت مـن سرعـة، لا تتوقـف أبـدا ولا تلتفـت لهـم».

هـذا مـا نصحنـي بـه الرجـل الغريـب الـذي زار أحلامـي منـذ فـترة. قـال لي ذلـك وهـو ينظـر في عينـي ويشـد عـلى يـدي. نعـم أنـا أذكـر الكوابيـس والأحـلام المبتـورة ولا أُسـقط تفصيلـة. غـير أن هـذه الكلـمات لم أكـن لأتذكرهـا بهـذه الدقـة اعتـمادًا عـلى حلـم. أنـا أتذكرهـا لأني وجدتهـا مكتوبـة في ورقـة صغـيرة صفـراء وملصوقـة عـلى مـرآة الحـمّام. للحظـة تخيلـت أني لازلـت في الحلـم، غـير أني مسـتيقظ تمامـا والورقـة في يـدي.

أرجعتها مكانها وانتظرت أن تختفي من تلقاء نفسها. لكنها لم تفعل وبقيت. كان بإمكاني أن أبحث ورائها، أن أستنزف نفسي لمعرفة من كتبها بخط منمق وتركها لي على المرآة. غير أني قررت ألا أفعل وأن أوجّه طاقتي نحو دفن كوابيسي الليلية وأحلامي المبتورة وهلاوسي المرئية والمسموعة بعيدًا.

أستيقظ يوميًا لأنفذ وصية الرجل الغريب -الذي مر سريعًا وترك في قلبي سكينةً ما- أدفن ما أمرّ به بعيدًا، أحلق ذقني وأغسل وجهي وأتناول فطوري وأمضي في طريقي للعمل. أتحدث مع زملائي وأكتب المقالات التي تُطلب مني وأقيّم مقالات الآخرين من أجل النشر. أضع خطط الكتابة الشهرية وأتابع الموقع الإلكتروني للمجلة.

أجلس في المقهى بعد انتهاء ساعات العمل لأدخن الشيشة وأثرثر مع الأصدقاء. أتعامل بعادية لا تليق بالاعتداء الذي يمارس على روحي كلما غفوت للنوم. توقفت عن زيارة الطبيب النفسي منذ زارني الرجل الغريب ومنحني وصيته، فالطبيب قد فشل في تخليصي مما أعانيه. كما فشل قبلها شيخ الجامع الذي حاول محاربة همومي ومشاكلي بالرقية الشرعية مرات ومرات. لشهور طويلة، انتظرت أن يمر

الرسول الغريب في حلمي مرة أخرى، أن يربت بيده على قلبي ويشجّعني في المضي قدمًا. لكنه لم يجيء. كان معنيًّا بتوصيل رسالة وأنجزها على خير وجه. لن يمر ثانيةً في أحلامي، فلابد وأنه مشغول بإيصال رسائل أخرى.

«أن تكون الرسول الغريب الذي يمر سريعًا ليلقي بعضًا من سكينة وقليل من طمأنينة في قلوب المعذبّين ليلا .. لأمرٌ جليل، لابد وأنك دفعت الكثير كي تناله».

لأيامٍ كثيرة كنت أفكّر في هذا.. أن أكون أحد الرُسل الغرباء. لم أكن أعرف لمن أُقدّم أوراق اعتمادي؟. من المسئول عن توزيع الرؤى والكوابيس والأحلام؟. من المنوط ببث الطمأنينة أو إرسال الرُسل برسائل مبهمة بغية التحذير. من اختص هؤلاء للتربيت على قلوب المتعبين؟. صار الأمر شغلي الشاغل. كنت موقن أن الورقة الصغيرة التي تجلس في قلب مرآتي هي تذكرة المرور. غير أني لا أعرف الطريق الذي يجب أن أمر منه.

لم أعرف متى على وجه التحديد بدأت أحلامي في أخذ منحىً آخر غير الذي اعتادته. لم أعد ذلك التائه الذي يبحث عن مخرج. أو ذلك الحبيس الذي تعطلّ به المصعد

ونسـاه النـاس ليعـاني مـن الاختنـاق والمـوت البطـيء. فجـأة صرت أقـف في الزاويـة أنظـر لمـا يحـدث للجميـع دون أن أتدخـل. صرت مراقبًـا غـير مـرئي. وكأن هـذا ليـس حلمـي، وكأني دخيـل عـلى حلـم آخـر. لم أكـن أعـرف أصحـاب الأحـلام، وأشـعر بالغربـة بينهـم. لم أفهـم مالـذي تعنيـه كلماتهـم وإلام تشـير؟!. لكنـي حاولـت أن أسـتمتع بالمراقبـة. بـأن أكـون مشـاهِد لا فاعـل.

لـسبعة أيـام كنـت محبوسًـا في حلـمٍ واحـد. يتكـرر بصـورة يوميـة، بنفـس التفاصيـل وتسلسـل الأحـداث ذاتهـا. حتـى أن تفاصيلـه اسـتحوذت عـلى يومـي. صرت أبحـث لصاحـب الحلـم عـن مخـرج. صرت أفكّـر في الأحـداث وأودّ التدخـل مـن أجـل تغييرهـا. في اليـوم الثامـن وعنـد تفصيلـة معينـة، ناديـت عليـه أن يتوقـف. لم يكـن صـوتي مسـموعًا وكأني داخـل فقاعـة زجاجيـة، صـوتي يعـود لي.. ولا أحـد يـراني. لكنـي لم أستسـلم. في الأيـام التاليـة، كـررت محـاولات التدخـل في الأحـداث. كنـت أنـادي عليـه لأخـبره أن يفعـل كـذا ويتوقـف عـن كيـت. لشـهرٍ كامـل كنـت أفعـل ذلـك دون كلـل. إلى أن التفَـتَ إليَّ أخـيرًا، وكأني ظهـرت لـه مـن العـدم. ابتسـمتُ وحـين بـدأت في نُصحـه، توقفـت. لا أحـد يُحـب أن يُوجّـه «غريـب» خطواتـه. وضعـت

يـدي عـلى كتفـه وأخبرتـه أن ينتبـه وألا يتـسرع في اتخـاذ القرار، ثـم تركتـه وذهبـت. لم أعـد مـرة أخـرى لهـذا الحلـم، انتقلـت لغـيره وقـد أدركـت مـا يحـدث. لـن ألتـقِ بالغربـاء أمثـالي. لـن يـوزّع علينـا أحـدٌ المهـام أو يوكّلنـا بتوصيـل رسـائل. فقـط، نُوضـع في حلـم أحدهـم لفـترة مـن الوقـت حتـى نألفـه. نعـرف الشـخص ومـا يعانيـه ونصـير معنيـين بالبحـث عـن نصيحـة ملائمـة، أو أن نكتفـي بالابتسـام في وجوههـم والربـت عـلى قلوبهـم المتعبـة وبـث بعضًـا مـن السـكينة في أرواحهـم ونمـضي.

صرت معنيًّا بوظيفتـي الجديـدة وتماهيـتُ فيهـا لأقـصى درجة حتـى أني توقفـت عـن الذهـاب للعمـل أو الرجـوع للبيـت دون أن أنتبـه لذلـك. وحـين عُـدت أخـيرًا لمنـزلي اكتشـفت أن آخـر يسـكن فيـه. في البدايـة لم أفهـم. حاولـت التحـدث إليـه ومناقشـته لكنـه لم يسـمعني. رابطـتُ في بيتـي ورفضـت الخـروج منـه، لكنـي اكتشـفت بعـد فـترة أنـه لا يـراني.

هـل كان ذلـك هـو تذكـرة المـرور لعـالم الغربـاء الطيّبـين؟. لسـت أدري، لكـن لا يهـم. فـأن تكـون الرسُـول الغريـب حامـل السَـكِينة، أمـرٌ يسـتحق.

جحافل الذباب
وذاكرة الرُكام

حين همس الصبيّ في أذنيها:

- «مات، مات يا خالة».

فتحت عيونها الذابلة وبُعث فيها الروح من جديد. اتكأت على ذراعيها، وأخذت في استجوابه: هل تأكدوا؟. هل أخرج المشفى بيانًا رسميًا؟. هل أعلنت وكالات الأنباء؟. هل حددوا يومًا لدفنه؟. وحين تيقنت، ابتسمت. فهي منذ ذلك اليوم البعيد، لم تذكر المجزرة. ولم تتحدث عن الأبناء الذين فقدتهم مجتمعين ولم تتعرف على أجسادهم التي أحرقتها الدانات وتحللت تحت الركام. لم تُخبر أحفادها عن رائحة العفونة ولا عن جحافل الذباب، ولا عن الوجوه التي تآكلت وطُمست. تناست مشهد حصارها مع أحفادها الرُضّع وأبناء الجيران في أحد المنازل، حين هاجمها الجنود وأجبروها على الخروج منه بالقوة. لم تحكِ أنها شاهدت

قنـص «أبي جنـدل» -وهـو معصـوب العينـين مكبّـل اليديـن- مـن ثقـب أحدثـه الرصـاص في إحـدى الحوائـط. لم تسـتطع أن تعـزّي أم «جـمال» الـذي شـاهدت بقايـا جسـده بعدمـا داسـته الدبابـات، فغطّتـه بشرشـف أتـت بـه مـن أحـد البيـوت المهجـورة في الحـي.

تنفسـت الصعـداء وتحاملـت عـلى جسـدها الواهـن ونهضـت مـن الفـراش. خرجـت إلى السـاحة، متكئـة عـلى الصغـير رافعـة صوتهـا -الـذي بُـح منـذ زمـن- بالزغاريـد. اجتمعـت النسـوة ليباركـن لهـا ويطلقـن الزغاريـد معهـا. فبالنسـبة لـكل مـن في المخيّـم، هـو خـرج مـن حسـاباتهم حـين سـقط منـذ سـبع سـنوات في هـذه الغيبوبـة التـي تعفّـن فيهـا قبـل أن تتوقـف أجهـزة جسـده وتصعـد روحـه النتنـة للسـماء. لكنّهـم جاملوهـا بإطـلاق الزغاريـد والالتفـاف حولهـا حـين حزّمـت خصرهـا ووقفـت برغـم شـيخوختها ومـا صاحبهـا مـن آلام الفقـد ونـار الذكـرى، كي ترقـص فرحًـا في نَفـس السـاحة التـي تكوّمـت فيهـا جثامـين الشـهداء.

في المسـاء، ارتـدت عباءتهـا الملونـة وجلسـت في باحـة الـدار تتلقـى التهـاني. ظلّـت تحـكي لهـم عـن البشـارات التـي كانـت

تأتيها لتربط على قلبها وتؤكد لها أنها عينَها ستقر وستشهد هذا اليوم. في آخر الليل، ذهبت النسوة لديارهن، وجلست هي في باحة المنزل، تبتسم لأطياف من ملئوا المكان. ظلت تربت على صدرها وتهز رأسها لترحب بهم وتعرض عليهم الجلوس لتضيّفهم وتصنع لهم الشاي.

الصبيّ الذي كان يتجه نحوها كي يأخذها للمنزل، رآها تنهض وتتكئ بيدها على من ليس له وجود. فَفزِع للدار كي ينادي أباه الذي جاء ليرى ما يدّعيه الولد. لكن الأب وجدها جالسة في مكانها مبتسمة تنظر للأمام، فلطم الولد على كتفه وذهب ليعاونها على النهوض مُخبرًا إياها عن أضرار الجلوس في الطلّ. وحين اقترب، رأى عيونها ضاحكة، مثبّتة على المدى البعيد وقد فارقت الروح الجسد.

الغُول

حـين أيقظَتْهـا الصغـيرة مـن النـوم لتخبرهـا بصـوت يخنقـه البـكاء ويقطـر منـه رعـب حقيقـيّ عـن ذلـك «الغُـول» الـذي يقــف عنــد طــرف سريرهــا، لم تشــك في الأمــر. وظنّــت أنــه مجـرد كابـوس داهـم طفلتهـا واكتفـت بـأن أفسـحت لهـا قليـلاً ومددتهـا بجوارهـا. لكـن حـين بـدأ هـذا «الغُـول» في تحويـل حياتهــم لجحيــم، دقّــت نواقيــس الرعــب بداخلهــا، وخــرج «غُولهــا» الشــخصي مــن مكمنــه في غياهــب الذاكــرة. ليومــين متتاليـين لم تفعـل شـيئًا سـوى الجلـوس صامتـة في أحـد الأركان، تدخــن ســجائرها وتبحــث بعيــون «حــدأة» فيمــن حولهــا لتنقـض عليـه وتنشـب مخالبهـا الحـادة في قلبـه وتمـزق كبـده. كانــت تعرف-عــن ســابق تجربــة- أنــه لابــد وأن يكــون أحــد المقربـين. هـؤلاء الذيـن نأمنهـم عـلى أنفسـنا وفلـذات أكبادنـا ولا نظـن بهـم سـوء. صـارت عصبيـة وتدخـن طـوال الوقـت.

تلـوم نفسـها عـمّا حـدث، وترفـض أي كلـمات مواسـاة أو تشـكيك في أن مـا يجـول بخاطرهـا ربمـا لم يحـدث، وأنـه لا رابـط بـين «غُولهـا» و«غُـول» ابنتهـا. لكـن «غُولهـا» الـذي بُعـث مـن قـبره بعـد سـنوات طويلـة مـن الرمـس، لم يـترك لهـا فرصـة لتصديـق ذلـك. حتـى أنهـا أنشـبت أظافرهـا في وجـه زوجهـا وأخبرتـه أنـه ليـس مهتـما ويهـوّن مـن الحقيقـة، لأن الصغـيرة ليسـت مـن صلبـه. الأمـر الـذي بقـى معلقًـا في الهـواء ولم تسـتطع التراجـع عنـه ولم يقـدر هـو عـلى تجـاوزه. رافقـت الطفلـة كظلهـا، كانـت مـصرة أن تعـرف مـن «هـو». فهـي لـن تتركـه يفلـت بـدون عقـاب، يكفيهـا أنهـا لم تخـبر أحـدًا عـما حـدث لهـا منـذ ثلاثـين سـنة وأفْلَـتَ «الغُـول» القديـم بفعلتـه.

أرهقـت نفسـها بالبحـث عـن كل «مذكّـر» يقـع في دائـرة ابنتهـا، راقبـت الجميـع وتشـككت في الـكل، وضعـت طفلتهـا في كـرة بلّوريـة وأغلقتهـا عليهـا. كانـت تبـكي كل ليلـة وهـي جالسـة في الركـن أمـام سريـر طفلتها لأنها فشـلت في أن تحميها مـما سـبق وأن تعرضـت هـي لـه. يتأكـد لهـا مـا رمتـه أمهـا -منـذ سـنوات بعيـدة- في وجههـا، لحظـة غضـب: أنـتِ فاشـلة وخائبـة ولم ولـن تنجحـي في شيءٍ أبـدًا. أمهـا كانـت عـلى حـق، فحـين تفشـل في حمايـة طفلـك مـن اعتـداء جنـسي، تصبـح

الوظيفة المحترمة والمركز الاجتماعي العالي والعلاقة الزوجية الرائعة وقائمتك من الانجازات التي تفخر بها ويحسدك الناس عليها ويتهامسون من خلفك «كيف استطعت أن تحققها؟»، صفرًا كبيرًا.. يأكل كل شيء، ما عدا الخيبة والفشل والاحساس بالهزيمة.

حاول زوجها انتشالها من هوة الاكتئاب، داوم على إقناعها أنه لا دليل لما يأكلها ليل نهار. قاتل كي يرسل «غُولها» المحرر إلى حيث كان. حدّثها عن كونه فخورًا بها وأن شكوكها التي لا دليل عليها تؤكد كونها أمًا ناجحة لم تترك تفصيلة عرضية دون أن تحاول سبر غورها. أذعنت قليلا لما يقول، لا لأنها فشلت في التوصل لشيء ولا دليل على ظنونها.. ولكن لأن قلب الأم كان يريد أن يصدّق في أن ابنتها الصغيرة لم تتعرض هي الأخرى لهذه التجربة البشعة التي تترك في الروح فجوة لا تلتئم.

بدأت في التعامل مع «غُول» صغيرتها على أنه هارب من أحد الكوابيس ولا يمت لـ «غُولها» بصلة. لكنها لم تدفن الأمر بعيدًا، تركته قريبًا من السطح كي تظل يقظة لما قد يحدث. وقد كان..

بعد شهرين، تصادف وعادت مبكرة للمنزل بعدما أُلغيَ اجتماع عمل لسبب طارئ. دخلت بيتها وهي تتعجب من الهدوء الذي يغلّفه. ظنت للحظة أن «حبيبها» خرج هو والصغيرة، فلم تهتم. لكن حين اقتربت من باب غرفتها، تسمرت. لم تكن يده التي تتحسس جسدها الصغير مطموس المعالم هي الصاعقة التي أطاحت بعقلها، لكن ما قتلها كان نظرة الاستمتاع التي تعرفها جيدًا وتطلّ الآن من عينيه. حب عمرها الذي افترقت عنه لفترة طويلة، تزوجت فيها غيره ورُزقت بابنتها، ثم عادا واجتمعا.. يتحسس جسد طفلتها الصغيرة باستمتاع بالغ. الرجل الذي يعرف خريطة جسدها ولم تختبر قبله رعشة الإرجاز ولم تتأوه إلا في حضرته.. يعتدي على ابنتها الطفلة. زوجها الحبيب هو «غُول» ابنتها.

لا تدري من أين أتت بهذا الهدوء وكيف غادرت البيت دون جلبة، كل ما كان في بالها هو أن ترفع عن نفسها «الخيبة» التي وصمتها بها أمها قديما وها هي تتجسد اليوم. قررت ألا تترك هذا الغُول يفلت -هو الآخر- بفعلته. أجرت مكالماتها وطلبت من إحدى أخواتها أن تتصل بالبيت وتذهب لتأخذ الطفلة فلديها هي وحبيبها مناسبة تستحق

الاحتفـال.

عـادت للبيـت بعدمـا صـارت الطفلـة في أمـان. دفنـت بداخلها كل مـا يعتمـل بهـا ووضعـت قنـاع العاديـة وأعـدت عشـاءًا يليـق بمـا تنتـوي فعلـه. جلسـا متقابلـين يثرثـران بحميميـة مألوفـة ويضحـكان، تاركـةً إيـاه يداعـب جسـدها دون أن تبـدو عـلى وجههـا علامـات الاشـمئزاز والرغبـة في القـيء.

بعـد سـاعتين كانـت تجلـس عـلى المقعـد الخشـبي الصغـير منهمكـةً في التقطيـع. وكلـما تمكنـت مـن إخـلاء العظـم مـن قطعـة لحـم، نظـرت لرأسـه الموضوعـة عـلى الطاولـة أمامهـا وأخبرتـه: لديـك كل الحـق يـا عزيـزي، أنـا لسـت فاشـلة كـما ادّعـت أمـي، أعتقـد أنهـا -الآن- فخـورة بي.

تكوُّر

الأمـر لم يعـد مُجـرد خـوف مـرضي ورغبـة شـديدة في الاختبـاء، تجعلنـي أتكـوّر عـلى نفـسي في وضـع الجنـين -أثناء النـوم- وكأني محمّيـة بداخـل أحدهـم. الأمـر زاد عـن الحـد، فكلـما انتابتنـي رعـدة وتدفـق الأدرينالـين في دمـي، هرعـت مسرعـة لأرفـع السـجادة باحثـةً عـن المقبـض الـذي سـيفتح لي بطـن الأرض. أمـد قدمـي لأتحسـس درجـات السـلم الصغـير، ثـم أهبـط مُغْلِقـةً البـاب فوقـي. كاتمـةً أنفـاسي في هـذا السرداب الصغـير، المربـع الحجـم. أظـل هنـاك، سـاعة، عـشرة.. وربمـا أيـام، حيـث السـكون والوحـدة والظـلام والاختبـاء بالداخِـل. حتـى يـزول الخـوف وأتمكـن مـن دفـع البـاب الصغـير فـوق رأسي وأخـرج، لأعيـد ترتيـب السـجادة فوقـه. لا تكرهينـي يـا ابنتـي، الأمـر زاد. في البدايـة، حـين عـثرت عـلى هـذا السرداب ولجـأتُ إليـه هربًـا مـن بطـش أبيـكِ، لم أكـن أطيـق الجلـوس فيـه أكـثر مـن عـشر دقائـق. الآن.. صـار ملجـأي الوحيـد، فاغفـري لي.

بانتحاري يا حبيبتي أحميكِ من أن ينعتك الناس بـ «ابنة المجنونة». تخيّلي حفلة عيد ميلادك الثالث عشر، وأنتِ أميرة صغيرة تتوسطين أصحابك.

فجأة، تضيء السماء بشرارات الألعاب النارية التي جاء بها صديقٌ لكِ، فتجري أمك لترفع طرف سجادة الصالة وتختفي في باطن الأرض. ستزفك حفنة من المراهقين حتى باب الفصل في اليوم التالي، لأن لكِ أُمًا مجنونة، تلتجئ لسرداب كلما تدفقت دفعة من الأدرينالين في جسدها. أنا أنهي حياتي الآن من أجلك، فلا تغضبي مني حين تباغتك دماء الحيض للمرة الأولى ولا تجدين من تخبرينه. أنا أُحبك وأريد أن أحميكِ. ولكني لا أجد الراحة ولا أستكين إلا وأنا بالداخل. داخل الأرض، حيث الظلام والوَحشة والعزلة الاختيارية والانفصال عن البشر. أنا أُحبك أكثر من أي شيء وأي أحد.

أكتب لكِ هذه الرسالة قبل أن أهبط لقبوي الذي سيصيرُ قبري عمّا قليل. أنتِ آخر من فكّرت فيه، بل أنتِ أول من قررت أن أحميه بانتحاري. سأُخبئك بداخلي كي لا تبحثي لنفسك -ذات يومٍ- عن قبوٍ تتكورين فيه. سآخذك معي كي

يطمـئن قلبـي عليـكِ.. فقـط حـين تقرأيـن هـذه الرسـالة -ولا أعـرف كيـف وأنـتِ سـترحلين الآن معـي، مضغـةٌ صغـيرة، قطعـة لحـم متشـبثة بـأوردتي ومحميـةً في داخـلي- اعـرفي أني حسـمتُ أمـري لأجلـكِ، وخوفًـا عليـكِ.. فسـامحيني.

النبوءة

شـق نباحهـم سـكون الليـل. لم يكـن أحـد يسـير في الشـارع كي نعتقـد أنهـم يهاجمونـه. -اللصـوص مكثـوا في بيوتهـم خوفًـا مـن هـؤلاء الذيـن أُصيبـوا بتجـولِ لا إراديّ بعدمـا قـرروا كـسر حظـر التجـول الـذي فرضتـه عليهـم الحكومـة-. ظـل نباحهـم يعلـو ويعلـو إلى أن أسـكتهم -فجـأة- صـوت الرصـاص المندفـع مـن رشـاش آليّ. وحدهـا مـن لم تتوقـف وظلـت تمـوء في ركـن مدخـل البنايـة، حيـث وضعـت القطـة الحبـلى حملهـا منـذ يومـين. كانـت تشـعر بالخـوف وتنـادي عـلى أمهـا كي تحتمـي بهـا. كان صـوت الرصـاص يعلـو وينخفـض، يبتعـد ويقـترب. والـكلاب مـا بـين صمـتٍ ونبـاحٍ عـلى اسـتحياء. لكـن الرصـاص لم يصـب أيًّـا منهـم كـما سـبق وأن أصـاب آخـر ينتمـي إليهـم منـذ خمـس وعشريـن سـنة، حـين شـق نباحـه سـكون الليـل في الشـارع المعتـم، فصـوّب خفـير الـدرك بندقيتـه نحـوه وأرداه قتيـلا. ليسـتقيظ الجميـع عـلى بـكاء الطفـل الـذي كان يُصادقـه وهـو يشـق سـكون السـاعات الأولى مـن الصبـاح. لشـهورٍ طويلة

لم يتعاف الصغير من مقتل صديقه. ولسنواتٍ طويلة كان الحيّ بأكمله يذكر «حَمَاصة» الذي ظن الخفراء لصوصًا، فنبح عليهم. فأردوه قتيلا.

صوت تدافع الرصاص كان يدل على المعركة التي تبدو قريبة من بيتها. لكن صوت شيخ الجامع الذي كان يؤم الناس لصلاة الفجر كان يواجه صوت الرصاص الذي يبدو أنه يندفع في محيط مسجده. كان صوته قادرًا على دحض صوت الرصاص وعلى كسر سطوته وتقليل الرعب الذي يبثه في نفوس المصلّين وساكني الحيّ. لكن خشوع صوته لم ينزع الرعب من قلبها. نهضت من سريرها وخرجت نحو الشرفة لتراقب المعركة الدائرة قريبًا منهم. لكن لا شيء كان واضحًا سوى صوت الرصاص وثبات صوت الإمام.

يسكت صوت الرصاص فجأة كما بدأ فجأة. بعد فترة، يعود المصلّون من الجوامع، وكأنه لا معركة كانت تدور رحاها في هذه الشوارع منذ قليل. تشعر أنها ستصاب بجنونٍ قاتل. الناس تأقلموا. صار الدم والموت جزءًا لا يتجزأ من حياتهم اليومية. وصار صوت الرصاص مقطوعة موسيقية تُكمل الصورة.

لا تنـام. بالرغـم مـن أنّ أسرتهـا الصغـيرة لا زالـت مكتملـة وآمنـة. لا أحـد منهـم -الآن- خـارج البيـت، معـرض لرصاصـةٍ طائشـة أو طعنـة سـارق بالإكـراه أو للوقـوف في كمـينٍ للجيـش يؤهلـه لخـوض تجربـة المحاكـمات العسـكرية. لكنّهـا وبرغـم ذلـك، لا تنـام. تجلـس عـلى الأريكـة التـي تجـاور بـاب المنـزل، ولا تتحـرك. تُشـاهد كل مـن يخـرج أو يدخـل وتوصـد خلفهـم البـاب.

لم تـر الشـارع منـذ أكـثر مـن شـهريَن. لم تقـدّم واجـب العـزاء في قريـبٍ لهـم سـقط صريـع رصاصـة قنّـاص وهـو يحـاول إنقـاذ زميـلٍ لـه، سـبق وأن أصابـه ذات القنّـاص، فماتـا سـويًا في عـرض الطريـق أمـام أعـين النـاس وفي قلـب السـوق الـذي يعملـون فيـه. تعـرف أسـماء الضحايـا وعددهـم. لا تتعجـب مـن تسـاقطهم بهـذه الكـثرة وتلـك العشـوائية التـي حصدتهـم ولم تفـرّق بينهـم. فهـي حـين اسـتيقظت في ذلـك اليـوم وعرفـت عـن بـدء مراسـم القتـل غـير المـبرر للنـاس والمـارة، وقـع في قلبها مـا سـبق وأن أُخْـبِرَت بـه منـذ زمـنٍ لا بالقريـب ولا بالبعيـد، وظنّتـه حينهـا مجـرد هـلاوس وخيـالات.

«عما قريب، ستزور «المَنيّة» البلدة، ولن تترك بيتًا دون أن تزوره.

ستأتي -على غير العادة- ذات صباح. لن تجوس بين الأطفال أو العجائز، بل ستتجه رأسًا نحو قلوب الشباب والرجال، لتقتلعها وتتركهم في عَرَض الطريق وتمضي بحثًا عن غيرهم.

ستحصدهم سويًا في مكانٍ واحد أو ربما مكانَين -على أبعد تقدير-، لكن صور ضحاياها ستتدلي من فوق أسطح البنايات في كل أنحاء البلدة، مذيّلةً بأسماء أصحابِها.

سترابط في البلدة حتى تتم ما أتت من أجله. ستتخفّى عن عيون الناس، وإن استلزمها الأمر أن تسكن قليلًا حتى يطمئنوا أنها غادرت.. ستفعل. لن تغادر قبل أن تتم ما أتت من أجله.

لن تترك بيتًا دون أن تزوره، ولن تترك بناية لن يتدلى منها صورة لفقيد».

لذلك حين علمت عن عدد الضحايا الذين بدأوا في السقوط بداية هذا اليوم، أيقنت أن «المَنيَّة» قد حطّت

رحلها في البلد، وأن النبوءة آخذة في التحقق. ولأنها لم تخبر أحدًا بأمر النبوءة، لم يتفهموا الرُعب غير المبرر الذي أصابها. وكيف أنها لم تستطع تجاوز الأمر ولا حتى التأقلم معه -بعد فترة- كما فعلوا، وهاجموها واتهموها بقلة الإيمان.

ولأنها وحدها من حملت عبء المعرفة ورفضت أن تلعن غيرها بها وتلقيها عليه. تراها الآن لاتزال جالسة على الأريكة التي تجاور باب البيت طوال الوقت، ولا تنام. -رغم أن هذه الأحداث الدموية التي سقط فيها خمسون ضحية، مرّ عليها سنوات وسنوات، وقُدّم القتلة وقادتهم للمحاكمة العادلة، وارتاح أولياء الدم بأخذ قصاص أبنائهم- . فقط لأنها تعلم أن النبوءة لم تتحقق كاملة، وأن «المَنيّة» لم تترك بصمتها على عتبة كل بيت في البلدة الصغيرة كما وعدت. وأنها لابد متخفّية في مكان ما بعيدًا عن العيون حتى تتم ما أتت ما جاءت من أجله.

على رؤوسهم الطير

تنظر لي بعيون يومض منها الشرر وتصرخ في:

-أنا لا أترك حقي.

مـن صراخهـا المفاجـئ. تتسـع عيـوني وأهـز رأسي -دون أن يدفعنـي الفضـول وراء المعنـى- علّهـا تصمـت. لكنهـا تعـود للـصراخ في:

- أنا ابنة أبي، لا يُمكنني أن أترك حقي.. إما قاتلة أو مقتولة.

يسألني الشاب المُكلف بجمع الأُجرة من الرُكّاب:

- لماذا توجِه كلامها لكِ؟!.

أهـز كتفـاي أني لا أعلـم. تجذبنـي مـن ذراعـي «أمّـي لم تجمعنـي مـن بِضـع الرجـال. أنـا ابنـة أبي». لا أنبـس ببنـت شـفة أربـت عـلى يدهـا موافِقـة. تدفـع يـدي بعيـدًا وهـي تـزأر بـأن ثأرهـا مـع «عـمارة» لـن تتركُـه. تنظـر فيـما خلفـي

وتُحـدّث غائبًـا لا نعرفُـه:

- أنـا صَعيديـة، تـشرّب جسـدي مـن جسـد زوجـي واختلـط عرقــه بعرقــي ولَبَنــه بعســيلتي. لا يــترك الصعايــدة ثأرهــم. يُخبرهـا أحدهـم بعدمـا نفـد صـبره:

- لا تتركيه. فقط توقّفي عن الكلام.. الله يهديكي يا سِت.

تصرُخ: عنّه ما هَداني.

يُتمتــم بالاســتغفار والحوقلــة، فتُضيّــق عيونهــا ويتحــول صراخهــا لفحيــح:

- أنت لا شك تقرُب لـ «عمارة».

ترتعـد جَنَبـاتي وأهـز رأسي وأنـا أربُـت عـلى روحـي: - لـن أكونهـا يومًـا. لـن أكونها. سـأُصاب بالعتـه أو خرف الشـيخوخة. وسيحبسـني أولادي في غرفـة ضيقـة بعيـدة بـلا نافـذة كي لا أصرخ عـلى المـارة. سـأبكي كطفـلٍ صغـير حـين تنهـرني المـرأة المُكلفـة برعايتـي لأني بللـت ثيـابي. سأُسـب أمهـا وأخمـش وجهها بأظافـري. سـتتركني وترحـل ككثـيراتٍ غيرهـا. سـيُهددني أبنـائي بوضعـي في دار رعايـة. سأتوسـل إليهـم بقـبر أبيهـم ألا يفعلـوا.. وسـيفعلوا. في سـاعات صفـوي النـادرة، سـأظل أردد

على مسامِع الحوائط حِكايات تليق بجدة حكيمة لم تفقد وقارها ولم تتـه في غياهـب النِسـيان. سـألعن أحفـادي كلـمّا زاروني وتمللـوا مـن سـؤالي لهـم: مـن أنتـم؟!. لكنـيّ لـن أكونهـا يومًـا. لـن أهيـم عـلى وجهـي بحثًـا عـن ثـأرٍ وهمـيّ. لـن أسـب الغربـاء وأشـكك في شرف أمهاتهـن وأكيـل اللعـن للسـماء التـي تتخـلى عـن دعمـي. لـن أكونهـا يومًـا. لـن أكونهـا.

أنتبـه عـلى صراخـي وأنـا أُخـبر السـائق أنـه لابُـد مـن «عـمارة». وأن أخـي هـو مـن أوَرثـه تِلـك الندبـة التـي تشـق خـدَّه الأيمـن. يـضرب الـرُكّاب كفًـا بكـف ويكيلـون لي السـخرية. ينظُـر لي شَـبحها -الـذي يتـلاشى- بعينـين يـكاد ضوؤهـما يخبـو، فتـسري الرعشـة في أوصـالي وأصرخ في السـائق، «أنـا ابنـة أبي، لـن أتـرك ثـأري.. إمـا قاتلـة أو مقتولـة». يبتسـمُ الطيـف الـذي يختفـي وهـو يشـد عـلى ذراعـي، بينـما يقـف الطـير عـلى رأس الجميـع.. فأنشـغل بـه وأهِـمُ باصطيـاده.

نوبة سعال

نظراتهم الشبقة تتغذى على جسدها البض كل صباح. تسأل نفسها دائمًا كيف يُمكن لعيونهم التي لازالت تحمل الوسن وبقايا «الغَمَص» أن تتطاير منها كل هذه الشهوانية.

في البدء كانت متحفزة، تودّ أن تقتلع عيونهم وتُطعمها للكلاب الضالة. فيما بعد صارت لا تكترث. كل ما يهمها حين تخرج في السابعة والنصف وخمس دقائق من بيتها، أن تصل لبيت مخدوميها في تمام التاسعة. تحفظ طريقها من المنزل وحتى محطة المترو. توقفت منذ أمد عن ركوب «التوك توك» توفيرًا للجنيه والنصف وهربًا بجسدها من المواقعة في المرآة. تقطع المسافة في إحدى عشر دقيقة، ويستغرق المترو ساعة وخمس دقائق. تصل قبل التاسعة بتسع دقائق، تشتري الجرائد اليومية وتصعد السلم -المصعد صار ممنوعا عليها منذ فترة- لتدق الجرس في تمام التاسعة. تلقي بتحية الصباح على مخدومتها وتناولها الجرائد وتدخل كالمسرنمة إلى الداخل. تجمع أطباق الفطور من المائدة وتبدأ في جليها. في تمام العاشرة تخرج بفنجان

القهوة للسيدة في الصالة. وتنتقل هي بين غُرف المنزل لتبدأ في التنظيف اليومي. تصر السيدة على خروج كل المفروشات للشرفة كي «تتشمّس». رغم أن البنايات الشاهقة المجاورة لا تسمح للشمس أن تقوم بعملها. لكنها تفعل ما تؤمر به بآلية مطلقة. في الثانية عشرة تدخل السيدة المطبخ كي تبدأ في إعداد الطعام. لا يُسمح لها بأن تمد يدها وتساعدها. «أنتِ هنا من أجل النظافة وترتيب البيت وجلي الأطباق».

تبدأ هي في تنظيف الحمّام الكبير وغسله بالمنظفات القوية. تجلس على ركبتيها كي «تُفّرِّش» المرحاض. يطل في رأسها صورة ضبابية لأول مرة فعلت فيها ذلك، لكنها تنفضها بعيدًا وتعود للفرك. تنتهي من الحمّام الكبير وتتجه للآخر الصغير ثم تذهب للشرفة لجمع الوسائد والأغطية وفرشها على الأَسِرّة. في الثانية والنصف تخرج السيدة من المطبخ لتدخل هي. السيدة طبّاخة محترفة. لها «نَفَس» حلو وتُتقن الطهي وتمارسه عن حب. لكنها تترك خلفها تلالًا من الصحون والأدوات المتسخة. تبدأ في الجلي ومن ثَمّ تمسح الأرضية وتذهب لتبدّل ملابسها وتستأذن في الرحيل. في تمام الثالثة والنصف وتسع دقائق تقف على رصيف المترو في انتظار القطار. تصل البيت قبيل الخامسة بدقائق.

تدخل للمطبخ وتبدأ في إعداد الطعام أو إعادة تسخين ما منحته لها السيدة من طعام بائت لديها. تسأل الولد عن المدرسة وعن المذاكرة. تهز رأسها وتشرد وهو يغمغم بكلام يبدو للسامع أنه حديث بين صبي وأمه. لم يعد يسأل عن الأب الذي قيل ليه أنه سافر منذ زمن لبلد عربي وتوقفت أخباره فجأة. أهل الحارة ظلوا لفترة يرددون أنه تزوج من أخت الكفيل الدميمة، كي يضمن تجديد الإقامة.. ثم ماتت سيرته وتوقفوا عن مضغها. هي وحدها تعلم أنه هجرها لأنه ملّ تحمّل المسئولية. وأن قدماه لم تطأ أرضًا عربية ولا يحزنون. أولاد الحلال دلّوها على الخدمة في البيوت، ورشحوا اسمها للسيدة التي طلبت منها شهادة صحية تثبت أنها خالية من الأمراض. فآخر ما تريده مخدومة أن ينتقل لبيتها الجميل في الحي الراقي مرض تحمله خادمة. السيدة ودودة بالرغم من صرامتها. لا تتهاون في النظافة أو بوادر المرض. في بداية الشتاء أصرّت عليها أن تأخذ لقاح الأنفلوانزا، وإن وجدت جرحًا في يدها تمنعها من العمل. السيدة مهووسة بالنظافة وتخشى على صحة أبنائها، لديها تصوّر أن كل الفقراء لا بد وأنهم يحملون أطنانًا من الأمراض، تقطر منهم أينما ساروا ويتركونها أينما وُجِدوا.

في المـرة الأولى التـي سـعلت فيهـا ذلـك السـعال الجـاف المـؤلم جـدًا، قامـت بغـلي ملعقـة مـن الينسـون مـع أخـرى مـن زنجبيـل وعرقسـوس. وظلّـت تدعـو ألا تفاجئهـا نوبـة السـعال وهـي في بيـت مخدومتهـا. لكـن النوبـة كشـفت عـن نفسـها مـا أن خطـت أولى خطواتهـا داخـل المنـزل. الأمـر الـذي جعـل السـيدة تنتفـض وتطلـب منهـا المغـادرة والعـودة حـين تُتـم الشـفاء. لكنهـا تراجعـت، فالمنـزل في حالـة فـوضى والأواني تـكاد تلامـس سـقف المطبـخ في انتظـار جليهـا بعـد حفـل الأمـس. وأمـام حاجتهـا إليهـا، قـررت أن تبقيهـا. لكنهـا عـادت وفي يديهـا كِمَامَتـين.. وأمرتهـا أن تغطّـي أنفهـا وفمهـا الـذي يسـعل المرض. ظلّـت ترتـدي الكِمَامـات طيلـة أسـبوعين، حتـى بعـد أن توقـف السـعال. فالسـيدة كانـت تخـشى مـن أن يكـون الفـيروس لازال عالقًـا بشُـعبها الهوائيـة. وهـي لم تعـترض. فمـن حـق السـيدة أن تفعـل مـا بوسـعها كي تُحصّـن بيتهـا وأطفالهـا.

كانـت السـيدة تتحـدث في الهاتـف حـين أصغـت السـمع إلى وَصلـة السـعال المتصـل، فهرعـت نحـو الحـمام مذعـورة.. لتتسـمّر في مكانهـا وهـي تـرى بقعـة دم طازجـة تغطـي فـم الخادمـة والكِمامـة. حالـة الهيسـتريا التـي انتابـت السـيدة، كانـت مـبررة. خادمـة متكـورة عـلى نفسـها فـوق الأرض، تسـعل

بشـدة والدمـاء تغطّـي فمهـا وتتناثـر حولهـا عـلى السـيراميك.

في المـترو، لم تجـد مـن تنهـض لتُجلسـها، فافترشـت الأرض وأسـندت ظهرهـا للبـاب الآخـر المُغلـق. لم تكـن تذكـر كيـف خرجـت مـن بيـت مخدومتهـا وسـارت في الشـارع ووصلـت حتـى رصيـف المـترو. كانـت تقبـض يديهـا عـلى مـا أعطتـه لهـا السـيدة مـن نقـود وهـي تأمرهـا بعـدم العـودة أبـدًا. ظلـت تبـكي وتُخبرهـا أنهـا ليسـت مصابـة بمـرض خطـير، وأن بلعومهـا مجـروح بسـبب مشـاجرة افتعلتهـا بالأمـس مـع جـارة لهـا. لكـن السـيدة كانـت في حالـة ذعـر حقيقيـة. شرودهـا منعهـا مـن متابعـة الجلبـة التـي أحدثهـا بعـض الصبيـة عـلى رصيـف المـترو حـين توقـف القطـار في المحطـة فـترة أطـول مـن المعتـاد. الصبيـة الذيـن كانـوا يسـبّون بعضهـم البعـض بألفـاظ فاحشـة، ويركضـون عـلى الرصيـف ناشريـن حالـة مـن الفـوضى ونوعـا مـن الذعـر في قلـوب الفتيـات، كانـوا يحملـون عـلى ظهورهـم حقائـب المدرسـة التـي تسـللوا منهـا قبـل انتهـاء يومهـم الـدراسي. وحـين أطلـق سـائق القطـار صافـرة التحذيـر قبـل إغـلاق الأبـواب، اندفـع أحـد الأشـقياء إلى عربـة السـيدات. وظل يسـب أصحابـه عـلى الرصيـف، ليسـبّوا هـم أمّـه. كان يشـير لهـم بأصابعـه حـين أخـرج هاتفـه ليُحدثهـم ويُخبرهـم أنـه

سينتظرهم على رصيف المحطة التالية. الصمت الذي ساد عربة السيدات والصبي يتحدث في الهاتف ويسب -بمرح- صديقه على الطرف الآخر، سمح لها أن تفيق من شرودها لتسمع صوت الشقي ومكالمته البذيئة. فجأة توقفت الدموع وضاقت عيناها وهبّت واقفة من مكانها لتُمسك بالحقيبة التي على ظهره وهي تصرخ فيه: «مالذي تفعله هنا؟ لماذا لست في مدرستك؟».

حالة الهيستريا التي أصابتها وهي تهاجم الصبيّ وتُمسك بخناقه فجّرت في المشاهِدات خليطًا من الدهشة والذعر.

ظلّت تصرخ في وجهه وهي تضربه: «لقد طُردت اليوم من العمل. طُردت من الخدمة في البيوت. الخدمة التي امتهنتها كي تذهب للمدرسة وتصير إنسانًا ذا قيمة. طُردت وأنت تتسكع في الشوارع تسب أم أصدقائك ويسبون أمك». إلى أن استفاق الصبي من الصدمة ودفع يديها عنه «من أنتِ. أنا لا أعرفك. يا امرأة يا مجنونة».. تابعًا ما قال بوصلة بذيئة من السباب طالت شرفها، فأجبرت الراكبات على فصلهما عن بعضهما البعض. كانت تبكي في هيستريا وتلطم وجهها وتخبرهم أنها تشقى من أجل أن تُربيه بعد

أن اختفى أباه وها هو يُخيّب أملها. الصبي الذي ظل يُنكر معرفته بها، كان على وجهه علامات ذعر حقيقية تشي بأنه يرى «عفريت» لا امرأة مخبولة تدّعي أنها أمه. حين توقف القطار في أول محطة، هرع الصبي للمغادرة فيما تسمّرت هي في مكانها تردد ببكاءٍ مكتوم أنها طُردت اليوم من العمل في الخدمة في البيوت والراكبات يربتن على كتفها، يحوقلن وهن يقلبن شفاههن شفقةً عليها.

على رصيف المحطة، كان الصبي لا يزال واقفًا يُشير لها بيديه ويُخرج لسانه ويردد بصوتٍ مرتفع: يا امرأة يا مجنونة.

النشوة

كانت نظراته تجمّد الدم في عروقي. التقاء عيوننا كان كفيلًا ببث الرعب في قلبي والأدرينالين في جسدي. كانت أمي تنهرني كلما رأت رعبي باديًا على محياي. تُخبرني أنه يستحق معاملة أفضل مما أمنحها له وأنه لا يصح ما أفعله. كنت أنا الوحيدة التي ترى خلف حدقتيه، شخص مُخيف. كل من في الحيّ كانوا يعاملونه بلطف ومحبة حقيقية.. إلا أنا. بالنسبة لهم، هو لايزال الصبيّ الغض الذي فقدوه منذ عشر سنوات، كان خلالها حبيس قبوٍ قذر وضعه فيه ذلك الساديّ الذي خطفه. ونسوه تماما حتى قرر مجلس المدينة إزالة البيت القبيح المهجور، الذي يقبع في آخر الحيّ وكنّا نخشى المرور بجواره.

لم يحكِ لأحد تفاصيل ما مرّ به. لكنهم استنتجوها من ملامح وجهه والآثار التي وَسمت كل شبر في جسده. لم يجرؤ أحدنا أن يسأله لماذا لم يهرب بعد أن مات خاطفه قبل شهر من العثور عليه. وفي محاولة منهم لاحتوائه والتكفير عن أنه كان في محيطهم طوال هذه السنوات دون أن يشعروا

بـه أو يكتشـفوا مكانـه، فتحـوا لـه أبـواب بيوتهـم. كان قليـل الـكلام، لكنـه أخـبر الشرطـة أن العجـوز مـات بأزمـة قلبيـة داهمتـه وهـو يضربـه كـما كان يفعـل كل مسـاء. لم يسـأل عـن أبويـه، لكـن إحداهـن تطوعـت وأخبرتـه أن أمّـه ماتـت بفعـل الحـسرة عليـه بعـد عـام مـن اختفائـه. وأن أبـاه لحـق بهـا بعـد عامـين مـن رحيلهـا. منحـوه غرفـة صغـيرة فـوق أسـطح إحـدى العـمارات. وكانـت الأمهـات يرسـلن لـه الطعـام بصـورة يوميـة. لم يكـن يعـاني مـن «رهـاب الخـارج»، لكنـه أيضًـا لم يكـن يغـادر غرفتـه إلا نـادرًا. لا أعـرف هـل كان خـوفي مـا دفعنـي للاقـتراب منـه أم أنـه هـو مـن ألقـى عـليّ بشـباكه؟!. في المـرة الأولى التـي اتجهـت فيهـا صـوب غرفتـه، كان قلبـي يـدق بشـدة هيـأت لي أنـه سـينفجر. لكنـي بالرغـم مـن ذلـك واصلـت تقدمـي وطرقـت بابـه. ومـض يومهـا في عينيـه بريـق أكاد أجـزم أنـه تهكّـم، فأنـا ذهبـت إليـه كـما كان يخطـط. لكـن البريـق اختفـى في ثـوان، وحـين قـررت أن أُسـلم سـاقيّ للريـاح، كنـت قـد خطـوت إلى الداخـل وأغلقـت البـاب خلفـي.

خلال ساعة لم نتحدث ولا كلمة واحدة. وحين هممت بالانصراف، طلب مني أن أبقى قليلًا.. ففعلت. لشهور، كنت أطرق بابه.. يفتح لي فأدخل لأجلس بجواره دون أن ننبس ببنت شفة. حتى تجرأت ذات مرة ومددت يدي نحو ندبة تغطّي ذراعه، فلم يرفع رأسه. وحين ضممته إلى صدري، أغمض عينيه واستكان. من بعدها، صار احتضاني له واستكانته فوق صدري طقسًا مقدّسًا. لكنه لم يذب الجليد ولم يستطع أن يجعلنا نمارس الحكي. لستّة شهور لم أسمع صوته، إلا حين أخبره أني راحلة... فيطلب مني البقاء قليلًا، فأعده أن أعود غدًا، فيومىء برأسه وينهض ليغلق الباب خلفي. زيارتي له واستكانته في حضني لم تبدد رعبي منه. كنت كالمجذوبة. أخشى النار وأتجه إليها بكامل إرادتي. هل أنا مازوخية؟ أم أن لتدفق الأدرينالين في الجسد، نشوة كنشوة المخدرات تمنع متعاطيها عن التوقف؟!. هل كان ما نمارسه هو فعل الحب، أم أنه مجرد رغبة جسدية أطفأناها؟. كنت أسأل نفسي في كل مرة نفعل فيها ذلك، لكني لم أحظ بإجابة إلا حين بدأ في الحكي.

لم ينس شيئًا كما يظنون. طيلة عشر سنوات كان يعرف أنه لم يبعد كثيرًا عن البيت. العجوز كان يُحسن إليه في غير ساعات الضرب والحرق والتلذذ بالألم. كان مريضًا لا يسكّن ألمه سوى التلذذ بالألم. وكان في إيلام الآخرين مخدر قوي. كان يحدثه دومًا عن لذة الألم. لذلك قرر أن يُجربه. بعد أشهر من التخطيط، غافل العجوز وأثناء نومه، قيّد يديه وقدميه. أذاقه كل صنوف العذاب والألم. ظل يضحك وهو يخبرني عن وجه العجوز الذي كان يبكي من فرط الوجع، حين كان الصبيّ يجرب لذة النشوة للمرة الأولى. التفت لي وأخبرني أن التلذذ بآلام الغير، تمنحه نشوة لا يمنحها له الجنس. فأُسقط في يدي، مالذي سيفعله بي الآن؟!. لا أحد يعلم عن علاقتي به ولا عن زياراتي له. لن يشك به أحد. يمكنه أن يحبسني في غرفته لعشر سنوات دون أن يشعر بي أحد أو يعلم مكاني. وكأنه قرأ أفكاري، ربت على كتفي وأخبرني أنه لن يفعل. فإن كان تعلّم شيئًا خلال هذه السنوات، فهو ألا يربّي «وَحشًا» بداخل أحدهم، فهذا «الوحش» قادر على أن يفعل به ما فعله هو بالعجوز. هو فقط يحكي لي عمّا يفتقده منذ سقط العجوز صريع أزمة قلبية وهو يعذبه بالخنق.

حينها تأكدت أن ما كنا نفعله لم يكن فعل حب.. بل محض رغبة. وأن ما دفعني نحوه، هي تلك النظرة التي رأيتها خلف حدقتيه في كل مرة تصادف فيها أن التقينا وجمدت الدم في عروقي. دفعتني مازوخيتي لأطرق بابه، ودفعته ساديته لنصب شِباكَه حولي. فلديه ما أريد ولديّ ما يسعى إليه ويفتقده.

عابرو نافذة

لا أدري تحديـدًا متـى بـدَأَتْ. أتخيلهـا تفعـل ذلـك منـذ الأبـد. تسـتقيظ قبـل الفجـر بفـترة كافيـة. تعـد لهـم الطعـام. تنتهـي منـه وتذهـب للصـلاة. تعـود لتفتـح النافـذة وتتركـه لهـم. حتـى إذا جـاءوا في البكـور وجـدوه في الانتظـار. أشـفقت عليهـا مـرة وأخبرتهـا أن تفعـل ذلـك في الصبـاح. فـلا بـأس إن جـاءوا ووقفـوا في انتظـاره. لكنهـا أسـكتتني بنظـرة لـوم وهـي تخـبرني: إن جـاءوا ولم يجـدوه، سـيرحلوا للبحـث عـن غـيره في صناديـق القمامـة وعـلى أرصفـة الأسـواق. لا أدري كيـف اكتشـفوه في المـرة الأولى. لكـنّ مَـنْ فعـل، أخـبر الباقيـين. فصـاروا يأتـون في جماعـات. في البـدء كانـوا يتشـككون في كونـه «شَرَك». يقتربـون في حـذر. يهربـون إذا مـا رأوا ظـلّ أحدنـا أو سـمعوا صوتًـا. ينظـرون لبعضهـم البعـض عـلى أمـل أن تغلّـف الشـجاعة أحدهـم فيتقـدم. لكنهـم بعـد فـترة مـا، آلفـوه. تيقنـوا أن هـذا الطعـام يُوضـع خصيصًـا مـن أجلهـم فصـاروا لا يتأخـرون ولا يعرجـون إلى مـكانٍ غـيره. في المقابـل، صـارت تمنَحهـم وجبـة

أخـرى مسـائية. تَضَـع الطعـام عـلى النافـذة وتمـضي، فيأتـون لاحقًـا مـن أجلـه. يفعلـون ذلـك وكأن بينهـما عقـدًا مـا، كِلا الطرفـين ملتـزمٌ بـه. كلـما أخبرتهـا أن لا منفعـة -حقيقيـة- تعـود عليهـا مـما تفعـل. تهـز كتفيهـا لا مباليـة، وكأن ما تفعلـه واجبٌ، لا تطـوع منهـا. حـين اضطـرت ذات مـرة للغيـاب، أوصتنـي ألا أتوقـف عـن إعـداد الطعـام ووضعـه عـلى النافـذة. فعلـت ذلـك حِفظًـا للوصيـة. وحـين جـاء المسـاء وهممـت بوضـع الوجبـة الأخـرى، صعقـت لأنهـم لم يقربـوا السـابقة، رغـم أني سـمعت جلبتهـم في الصبـاح. كنـت قـد فعلـت كل مـا تفعـل وأعـددت الطعـام و وضعتـه بطريقتهـا، بيـدَ أنهـم تركـوه ولم يقتربـوا منـه. ليومـين متتالـين، كنـت أسـمع جلبتهـم في الصبـاح، ثـم أجـد الطعـام كـما هـو في المسـاء. حـين عـادت، لم أخبرهـا بمـا حـدث.

اسـتيقَظَت قبـل الفجـر، أعـدَّتْ لهـم الطعـام. فرغـت مـن الصـلاة ووضعتـه عـلى النافـذة. في الصبـاح كان الطعـام -على غير الأيـام الماضيـة- قـد فَنـى عـن بكـرة أبيـه. في الظهـيرة، قـررتْ أن تصنـع لهـم وجبـة إضافيـة. وحـين فتَحَـت النافـذة لتضعهـا لهـم. فوجئـت أنهـم قـد تجمّعـوا في انتظارهـا. ودون أي تـردد أو خـوف مـن الوقـوع في «الـشَرَك»، دخلـوا البيـت. يحركـون أجنحتهـم الصغـيرة بشـدة ويجذبـون بمناقيرهـم الحـادة أطـراف

ملابسـها وتعتريهـم نوبـة غضـب طفـوليّ جامـح.

عرضٌ ليليّ

أدفن رأسي تحت الوسادة. لكنّ أنّاتها تصلني رغم ذلك. شهقاتها المتلاحقة والتأوهات تحاصر بقعتي الصغيرة التي أتكور فيها. أقترب أكثر من نفسي. أُغلق ساقايّ وأُقرّب ركبتايّ من ذقني وأُحكم وضع الوسادة فوق أذني. العرض الليلي قائم على قدمٍ وساق. لا يصيبهم الحرج أبدًا ولا يكلّون. أعض على شفاهي وأمنع نفسي من أن أقوم في اتجاه غرفتهم لأصرخ فيهم كي يكتفوا من الفضائح الليلية. لكن النعاس يغلبني. أستيقظ قبلهم فأهرع للحمّام. بعد لحظات تدق يد أحدهم على الباب. أفكّر أن أتركهم بالخارج قليلًا.. لكني أتراجع وأتقي الشر. العلامة الحمراء التي تزيّن عنقها كانت أول ما لَمَحْتُه منها فشعرت بغصة في حلقي. لكن الشفاه المتورمة كانت تصرخ كي تلفت نظري. كانا يتقيان دائمًا وسمات الوجه. لكنهم هذه الليلة لم يأخذوا حذرهم. تشيح بعينيها بعيدًا عن نظرات الاحتقار التي أوجهها لها. أرتدي ملابسي على عجل وأترك هذا البيت الملعون. أرفع

الصاج عن واجهة المحل وأدخل. الوقت لازال مبكرًا جدًا. الزبائن لن تأتي قبل الظهر وأمامي متسع من الوقت كي أفكر في سيناريو الليلة الفائتة وكيف جَرت. يأتي زميلي الذي يقف في «كشك» سجائر على أول الشارع ليسألني:
- أفطرتي يا هند؟!. أهز رأسي بالنفي. يضحك ويقول: لابد أن ليلة الأمس كانت صاخبة. لكنه عاد وتراجع عما قال وجاء ليربت على كتفي ويسألني: هل فكّرتي مرة في دخول الغرفة عليهم لعلهم يتوقفون؟. أتنهد هازئة: أنا تقريبًا معهم في الغرفة، البيت كما تعلم، جُحر فأر. الحيّ بأكمله يسمع صوتهما كل ليلة، ورغم ذلك، لا يتوقفان. لن يتوقفا.

«لكنها السبب».

يسألني مستفهمًا: مالذي يمكنها أن تفعله يا هند؟ أشرد بذهني وأُتمتم: الكثير الكثير..

في الوقت الذي كنت أعلّق اليافطة الصغيرة المكتوب عليها «مغلق» على باب المحل وأهم بالذهاب للبيت لاستراحة الغذاء، كنت قد انتهيت من البروفة العاشرة لما سأقوله لها.

- أنا سأرحل عن هذا البيت.

شهقت وخبطت صدرها بيدها. وسألتني أين ستذهبين. لم أرد عليها، ذهبت لغرفتهم وبدأت في لمّ حاجياتي من الدولاب. هرعت خلفي، مالذي تفعلينه أين ستذهبين يا بنت المجنونة؟. التعبيرات الخشبية التي كست وجهي تسببت في إصابتها بحالة من الهيستريا. أجيبي عليَّ.. أين ستذهبين؟. هل تعتقدين أني حِمل هذه الفضائح الليلية؟. ما باليد حيلة يا هند، ما باليد حيلة.

حين بَدَأَتْ في البكاء، خرجتُ من الغرفة وعدت وبيدي سكينًا كبيرًا. وضعته في يديها وأخبرتها: إذن أوقفي هذا العرض الليليّ. ارحمينا من الفضائح.

النظرة التي علت وجهها شقتني لنصفين. «أتريدين أن أُصبح قاتلة؟»، قالت. أخبرتها بتهكم، وهل تُفضّلين أن تكوني مقتولة؟. تركتها تقلّب كلماتي الغامضة في ذهنها وعدت للمحل. لم أبِع قطعة واحدة طيلة اليوم. الشرود الذي انتباني وهمهمتي في الرد كلما سألتني إحداهن عن مقاس أصغر أو أكبر أو لون آخر، كان كفيل بإبعاد الزبائن. في المساء، أغلقت المحل وأنا أُقدّم ساق وأؤخر أخرى. ماذا

عساها ستفعل؟ هل ستستخدم السكين حقًا لتردعه؟ أم أنها ستهدده فقط. وضعت سيناريوهات عِدة. لكن ما حدث تلك الليلة كان أبعد ما يكون عن خيالي. حين جاء في آخر الليل، لم أضع الوسادة على رأسي. انتظرت متحفزة أن أسمع شجارًا بينهما أو صرخة مدوية منه. لكن حين بدأ العرض الليلي، جلست في مكاني أبكي وأنا أحسب ما معي من نقود للهرب. لا أعلم متى غفوت، لكني استيقظت على ربتة من يدها وهي تهمس لي بصوتٍ خافت: هند، هند.. هيّا. كانت تحمل حقيبة كبيرة، جمعت فيها أشيائها وأشيائي. أشارت لي أن أرتدي ملابسي دون جلبة. نظرة التصميم في عينيها أعمتني عن الوَسَمات الجديدة التي ظهرت على جسدها. خرجت معها كالمسرنمة، دون سؤال أو استفسار. طوال الطريق الطويل لم تنبس ببنت شفة، ولا أنا.

حين وصلنا أخيرًا لجامِع يستعد لتواشيح الفجر، تنفست الصعداء وأشارت إليّ أن ألحق بها. لم تُصلِّ، وكيف لها أن تفعل. ظلت تبكي حتى انتهاء الصلاة. ثم تركتني وذهبت لخادِم الجامع. عادت بعد فترة وهي تُخبرني أننا سنظل هنا حتى يطلع النهار. لم أسألها عن أي شيء. تكوّمت في زاوية ونمت. كانت المرة الأولى التي أنام فيها بسكينة. حين

أيقظتني بعدها بساعات. نهضت لأرحل معها. لم أشعر بطول الطريق أو ثُقل الحقيبة. على العكس.. كنت أسير بخفّة لم أعهدها في نفسي منذ أن احدودب ظهري وحطّ الهمُّ على منكبي. وحين وصلنا محطة مصر، لم أسألها عن وجهتنا، المهم أننا أخيرًا نرحل. وضعنا أقدامنا في القطار الذي كان يهم بالمغادرة. وحين بدأ القطار في الصراخ وترك الرصيف.. ابتسمت لي ابتسامة غريبة واحتضنتني وهي تُهمهم: لقد نجوتِ من العروض الليلية يا هند.

كان الصمت يُغلفنا حين وضعت يدها في صدرها وأخرجت لفافة ما، وضعتها في يدي وأطبقت عليها وهي تُخبرني، أن بها كل أوراقي وذهبها القليل وقروشنا الأقل. «هذه اللفافة هي كل ما نملك في هذه الحياة. حافظي على أوراقك واقتصدي في قروشك، لا أحد يعلم ما سيجيء به الغيب».

في المحطة التالية التي توقف فيها القطار، قبّلتني ووقفت. هممت بالوقوف فأجلستني وابتسمت ابتسامة باهتة: طُرقنا متوازية لا متقاطعة يا هند. وغادرت القطار. لثوانٍ توقف عقلي عن العمل، حتى إذا استوعبتُ ما قالت، كانت قد غادرت. أخرجت رأسي من النافذة ورُحت

أصرخ عليها: إلى أين؟ هل ستعودين إليه؟. لكن لم يكن لها أثر وكأنها تبخّرت. أسندتُ رأسي وأنا لا أعي شيئًا مما حدث. لماذا لم تتركني أرحل بمفردي إن كانت ستتركني في منتصف الطريق وتعود إليه؟. لم يخرجني من تِيهي سوى صوت «الكمساري» الحانق: يا آنسة، أنتِ تشغلين المقعد الذي يجاورك بالحقيبة. أنزليها في الأرض واسمحي لأحدهم بالجلوس أم تراكِ قطعتِ تذكرتين؟. فتحت اللفافة ومددت له يدي بالتذاكر. فازداد عُبوسه «لم تقطعي غير تذكرة واحدة وتاركة الناس وقوف منذ محطة مصر» لا يصح ذلك. يا «ست» تعالِ اجلسي هنا. هممت أن أُخبره أنّ المقعد المشغول بحقيبتي كان لها وأنها غادرتني حالاً في هذه المحطة، وأن معه تذكرتين. لكن السيدة التي تجلس في المقعد المقابل لي، قلبت شفاها وأخبرته: «ابني يقف في أخر العربة منذ «محطة مصر» لأني ظننت أنها قطعت تذكرة أخرى للمقعد الذي يجاورها». فتحت فمي لأُخبرهم أنها كانت معي وغادرت الآن. لكن صوتي ضاع أمام نظراته الغاضبة وهو يُعيد لي التذكرة الوحيدة التي ناولته إياها.

شهوة الاستسلام

«في كـون آخـر مـوازٍ، لابـد وأني ملتصقـة بـك الآن. أُحدثـك عـن المعجـزات الصغـيرة التـي تتحقـق، وعـن الأشـياء الجميلـة التـي تـأتي فجـأة فتغـيّر عالمنـا. أُحدثـك عـن الأمنيـات الطيبـة التـي تجمعـت خلـف شرفـات الغيـب، لتتضفـر معًـا وتتحقـق بعـد أن نسـيناها. أحدثـك عـن حبـك الـذي أعلقـه كتميمـة حـول رقبتـي، في محاولـة للبقـاء حيّـة وسـليمة في هـذا العـالم المختـل».

يحـدث ذلـك في كـونٍ آخـر مـواز.. أمـا في هـذا الكـون، وتحديـدًا في هـذه اللحظـة.. فأنـا أتمـدد عـلى الأرض البـاردة. ينتابنـي قليـل مـن الخـدر وكثـير مـن الإعيـاء. أنتظـر أن أرى النـور كي أتجـه نحـوه، لكـن لا أنـوار تومـض في المـكان. أسـمع اسـمي، تـردده إحداهـن مـن مـكانٍ بعيـد. أركّـز كل طاقتـي نحـو النـور الـذي سـيومض في أيـة لحظـة كي لا أُضيّعـه. تربـت إحداهـن عـلى وجهـي بخفـة ثـم بشـدة.. علهـا تنتشـلني مـن

هـذه الهـوة السـحيقة التـي أتجـه نحوهـا عـن طيـب خاطـر. لكنـي لا أرى أنـوارًا، ولا يمكـن لربتتهـا عـلى خـدّي أن تنتزعنـي مـن هـوّتي.

«لولا أن ربطنا على قلبها»..

في الأيـام الأخـيرة التـي كنـت أقـاوم فيهـا الاستسـلام المقيـت، كنـت أتعلـق بأيـة قشـة وأدّعـي أنهـا رسـالة موجهـة. كنـت أظـن أن كل يـومٍ نجـوت فيـه مـن الاستسـلام، زادني بُعـدًا عنـه.. وقلـل مـن فُرَصِـه في الانتصـار. لم أكـن أدري أني أسـتنزف طاقتـي وآكل فُـرَصِي -أنـا الأخـرى- في النجـاة.

لا أعلـم مـن أيـن جئـت بهـذه الجـرأة التـي دفعتنـي دفعًـا نحـو الاستسـلام.. كنـتُ واعيـة. مدركـة لمـا أفعـل. راجعـت نفـسي عـدة مـرات. فعلـت فعلتـي عـلى مراحـل. لم يكـن تهـورًا أو رد فعـل لحظـي لموقـفٍ عابـر. كان قـرارًا يختمـر في روحـي وينتظـر الوقـت المناسـب كي يتحقـق. وحـين جـاء وقتـه، تدثـرت بقليـل مـن الشـجاعة وكثـير مـن الأنانيـة، وفعلتهـا.

ممـددة عـلى الأرض البـاردة، يندفـع الأدرينالـين والإندروفـين في دمـي.. فتقـل الآلام وتـزداد النشـوة. تتفتـح حـواسي كلهـا

في محاولة للتعرف على مراسم حضوره. لكنه لا يحضر.. ولا يجيء. أيأس قليلاً فأترك الأرض الباردة وأنهض مترنحة لأتمدد على سريري. أفكر في شعري المشعث ومظهري المزري وعيوني المنتفخة ببكاءٍ لم يُسكب، وأقرر أن أتجمل له.. علّه يستجيب للغواية فيحضر. أجلس في حوض الاستحمام، دون أن أفكر في شيء. أمشط شعري الذي تشابك وتقطّع. يخطر في بالي أنه ربما يُفضّل ألا أراه.. أتناول أقراصًا -أخرى- منومة.. قرصًا، اثنين، ثلاثة، أربعة. فأنا لم ألتقيه من قبل ولا أعرف ما يفضّله، ربما يفضّل أن يجيء متسربلًا بخفاء. لا أمتعض لذلك، فالمهم أن يأتي. لكن الأقراص -كلها- لا تقوم بعملها. أظل مفتوحة العينين فلا النوم يأتي ولا الموت يجيء.

في النهاية.. أستسلم لفكرة أنه لن يجيء. أعترف لنفسي بذلك وأقره. لا يكفي أبدًا أن تتناول حفنة أقراص متنوعة كي تنعم بموتٍ يليق بك وتشتهيه. يجب أن يشتهيك الموت كي يجيء. والموت لم يشتهيني بعد، لذا مهما حاولت وقاتلت لن يجيء. فانصياعك للاستسلام وترفعك عن المعافرة، لا محل لهما من الإعراب أمام رغبة الطرف الآخر فيك. والموت لم يرغب فيَّ بعد.

أنهض من الأرض البادرة وأذعن صاغرة لغسيل المعدة. المحلول الملحي يحرق لساني وحلقي. الدموع تجري منسابة وكأن مجرىً مائيًا حُفر من أجلها في التوّ واللحظة. أتقيأ المحلول الملحي ممزوجا ببقايا الأقراص التي سكنت معدتي منذ يومٍ سابق. تنتابني رعشة وتتسارع نبضات قلبي. للحظة يلتبس الأمر عليّ وأعتقد أنه جاء. لكن هذه الأعراض أبعد ما تكون عن مراسم حضوره. فمراسمه يحيطها مهابة يُعرف بها وتليق به. أبدأ في تجرع زجاجات من الماء.. لأفرّغها -هي الأخرى- فيما بعد. أتناول حفنة من أقراص الفحم، وأتمدد بائسة على سريري.

تُوسوس لي نفسي أني بالفعل قد نجحتُ في المحاولة. فالفكرة ليست في توقف الأنفاس وزرقة الشفاة والتحول لروح خفيفة مرتفعة قليلا عن البدن. لكن الحكاية تنحصر في أن جزءًا مني قد مات فعليا في ذاك اليوم. أفكّر لثانيتين وأكتشف أنه: نعم..

فأنا أقدمت على هذه الفعلة عن طيب خاطر وعن اقتناع وبإرادة كاملة حاضرة، برغم ما أعرفه من وقع هذا الموت على الجميع وما سيجره على أحبائي من ألم. فعلت

ذلـك ولم أهتـم سـوى برغبـاتي.

لذلـك ابتسـمت حـين وضـع الطبيـب سـماعته -في اليـوم التـالي- ناحيـة الجانـب الأيـسر مـن صـدري. وحـين لم يجـد شـيئًا، تركهـا ليمسـك بمعصمـي، وحـين يـأس مـن الوصـول لمبتغـاه.. تفحـص بإصبعيـه رقبتـي في محاولـة أخـيرة لقيـاس النبـض وهـو ممتقـع الوجـه عاقـد الحاجبـين. وحـين هـز رأسـه متعجبًـا ونظـر بهلـعٍ في عينـي.. تيقنـت أني فعلتهـا وانتـصرت بشـكلٍ مـا في هـذا اليـوم ونهضـت مـن الفـراش تاركـةً إيـاه يتخبـط في ذهـول.

أم الوَليّ

تلمس بيدها الحائط وكأنها تُمسّده. أرى نظرة الحزن التي تكسو ملامحها. تتوجه بكليتها للحائط وتبدأ في التمتمة. لا أتبيّن ما تقوله لكني أعرفه جيدًا. تتململ الصغيرة تحت الأغطية. فتقطع نجواها وتعود لتُحكم حولها الغطاء. تُصدر الصغيرة صوتًا يشي بالضيق. تبدأ في الربت عليها وتُخبرها أن عليها أن تصبر للصباح وتتماسك حتى تنقشع الحمى. تهدأ الصغيرة قليلا وتذهب في النوم. تمسح عنها حبّات العرق وهي تردد «عَرق العافية.. عرق العافية». تتشبث عيونها بالحائط فلا تلمح طيف أبي الذي ولج إلى الغرفة.

هي سيدة متعلمة. لكنها «أم»، قد تنساق وراء الخرافات من أجل الوصول لمبتاغها. حين أحضرت منذ عشر سنوات تلك السمكة الغريبة كريهة الرائحة وَجَل أبي. كانت قد عرفتْها عن طريق إحدى السيدات البسيطة في صالون

تجميل. تقصت عنها وبحثت طويلا حتى آمنت أن هذه السمكة التي تتكاثر ذاتيًا قادرة على أن تمنح رَحِمَها – ببركتها- القدرة على الإنبات. لكن السمكة -التي عانت حتى عثرت عليها- ماتت بعد يومين من تواجدها في البيت. رفضت أن تُصدّق الفأل السيء وأن رَحِمَها أجدب لن يُنبت أبدًا، وألقت باللائمة على البيت الذي تشعر فيه بضيق وانقباض. وقررت أن تتركه. حاربت من أجل ذلك، حاربت وانتصرت. وفي البيت الجديد الذي تدخله الشمس وسبق وأن شهد ميلاد خمسة من الأبناء، لم تضطر لإحضار هذه السمكة، فقد حَمِلت منذ الشهر الأول. لكن الأطفال ذهبن مبكرًا جدًا. إما كـ «سقط» أو بعد شهور قليلة من مَجيئهن أحياء. لم تفقد الأمل ولم تفتر الرغبة التي تنهش قلبها وجسدها. وبدأت السير في خطين متوازيين. العلم والأطباء، والشيوخ والوصفات الشعبية. لا أعرف بالضبط تفاصيل دفنها لي في حائط الغرفة الصغيرة. لكني أظن أن إحداهن نصحتها بذلك. ففي الأرياف النائية والمناطق الشعبية تتكاثر الخرافات. ورغبتها في نبتة تنمو أمام عيونها وتكبر لتضرب جذورها في الأرض طغى على كل شيء. حين أخبرت الطبيبة أنها تُريد بقايا «سقطها» كي تدفنه بنفسها

لم تعترض. ولكن حين عادت بي للبيت، ثار أبي ورفض رفضًا تامًا أن تنساق وراء «الجهل» وتضعني في الحائط كي أحمي القادمين من بعدي. بكاؤها لم يشفع لها عنده، وخرج مغاضبًا. لكنها عنيدة جدًا ومتشبثة بالحياة. أزاحت الخزانة وصنعت حفرة في الحائط. ووضعت الخِرقة التي تحمل بقايا الدم والمضغة وسوّت عليها بالجبس الأبيض. ظلت تقرأ أورادًا غريبة وآياتٍ محددة وتطلب مني أن أكون الحارس لأبنائها القادمين. إخوتي. أعادت الخزانة موضعها. واتصلت بأبي بعد يومين وأخبرته أنها نزلت على رغبته وستذهب الآن للتخلص من بقايا «حارث». ورغم أنها لم تعرف أني ذكرٌ. إلا أنها قررت أن تُطلق عليَّ «حارثًا». آملة في أني قد «حرثت» رحمها من أجل الآتين بعدي. وحين اكتمل حمل الصغيرة أخيرًا وجاءت، أسمتها «نور». وأخبرت أبي أنها ستُنير عتمة حياتهم. لكن الصغيرة التي صمدت سنة ونصف، تقف الآن ممزقة، على بضع خطوات من الموتِ و.. الحياة.

تمسّد «أمي» الحائط الذي وضعتني فيه قبل سنوات بعيدة. تطلب مني أن أتحول من «حارث» إلى «حارس». تُعلِّق عينيها بالحائط والسقف. تناجي الرب وتتشفع بعدد

مـن فقـدت طيلـة سـنوات كثـيرة. تنظـر للحائـط بغضـب، تطلـب منـي أن أفعـل شـيئًا وأن أمنـع ملـك المـوت مـن أن يجـوس الغرفـة ويقـترب مـن أُختـي. أسـمع بكاءهـا ونجواهـا وأتطلـع معهـا -عاجـزًا- نحـو السـقف.

تغفـو وهـي تقـرأ الأوراد والآيـات. أجـد القـوة والفضـول للخـروج مـن الحائـط. أتحـرك نحـو الصغـيرة النائمـة التـي تشـع حـرارة. أقـترب منهـا فتفتـح عيونهـا. تبتسـم لي وتمـد يدهـا كي تلمسـني. أرتعـد وأتراجـع. هـل تـراني؟!. عيونهـا تتبعنـي أينـما ذهبـت. أنـا لا أعـرف شـكلي. أنـا مضغـة لم تكتمـل. هـل اسـتطالت قامتـي وصرت رجـلا؟ أم أنهـا تـراني طفـلا في مثـل عمرهـا؟!. الصغـيرة التـي ظلـت تصـدر أصواتًـا غـير مفهومـة كانـت تمـد يدهـا في اتجاهـي وتبتسـم بعذوبـة. غالبـت خـوفي واقتربـت منهـا فأضـاء وجههـا. مـددت يـدي ومسـحت عـلى رأسـها السـاخن وجلسـتُ بجوراهـا أردد تلـك الأوراد الغريبـة التـي كانـت تتمتـم بهـا أمـي. هـدأت الحـرارة وغفـت الصغـيرة وهـي ممسـكة بأهـداب خِرَقـي الباليـة. حاولـت أن أنسـل عائـدًا لجـداري فتململـتْ وقبضـتْ عـليّ بشـدة فتركـتُ بـين أصباعهـا قطعـة مـن خِرَقـى.

في الصباح انتبهت على بكاء أمي فارتعدت. لكن صوت الصغيرة ربت على قلبي. وانتبهت أن بكاءها مقرونًا بحوقلة وبسملة وربتات متباعدة على فخذها وهي تتمتم كنت أعلم.. كنت واثقة، الحارث وليّ، الحارث وليّ. اتسعت عيون أبي وهي تحكي له ما كان من أمر الحائط و «السقط» المدفون فيه وتُريه الخِرقة التي وجدتها في يد الصغيرة. وحين أزاح الخزانة ووجد بقعة الجبس الأبيض تتوسط الجدار. شهق غير مصدق وأخبرها: لدينا وليّ. ابننا وليّ يا أم الوليّ.

الغرفة صارت قِبلة أصحاب المقاصد. الحائط الذي أقبع فيه صار أخضر اللون بعد أن أزاحوا الخزانة وأعادوا طلائه. الفراش الوحيد في الغرفة صار يستقبل الأطفال المرضى والنساء العجائز اللواتي يخشين الموت ليبتن الليل فيه وينتظرن أن أخرج من الحائط لأتلو عليهم تلك الأوراد الغريبة التي رددتُها على مسامِع «نور» فحَرَستها وقهرت الموت. أمي رفضت أن تتقاضى أجرًا أو أن تضع صندوقًا للنذور كما أشار عليها البعض، تكتفي فقط بأن تختال على الجميع بأنها أول من صدّق في سيدنا «الحارث» وأنها -هي- أم الوليّ .

سَكَنْ

«أنا من فتحت التُربة كي أدفن الأستاذ. لازلت أتذكر هذه الليلة كما لو أنها بالأمس...

«أنا تُربي هذه المقابر أبًا عن جد. مرّ عليّ الكثير والكثير، لكن «مثلها»، لم يمر.. ولن يمر يا أبلة...

« لا، ليست بكماء. هيّ فقط لا تتحدث معنا كأنها لا ترانا. طوال الوقت أسمعها تحدّثه. أحيانًا أظن أنه سينفض الموت عن كتفيه وينهض من أجلها. كلامها يُذيب الحجارة ويقطّع نياط القلب...

«ليلتها كادت أن توقظ بصراخها كل الأموات. حتى هؤلاء الذين بَلت عظامهم...

«تركوها جواره ورحلوا، وأظنهم -بعد كل هذه السنوات- نسيوها...

«لا أدري من أين يأتيها الطعام. أظنّه طعام الرحمة

والنـور الـذي تـأتي بـه النسـاء في الخِمسـان. حتـى ملابسـها نظيفـة دائمًـا، لا أعلـم متـى تغسـلها...

«هـي لا تتوقـف لحظـة عـن الـكلام معـه وكأنهـا تـراه ويجلس معهـا. أحيانـا يعترينـي الخـوف. نعـم الخـوف. أنـا الـتُربي المولود هنـا، أحيانـا أخـاف منهـا. أعتقـد أنهـا وليّـة أو قديسـة، ألم يكـن محـراب «أم النـور» لا يفـرغ مـن الطعـام أبـدًا؟ ربمـا كان فيهـا شيء للـه كـ «أم النـور».. وربمـا يصير الأسـتاذ مسـيحًا ويقوم من أجلهـا. لا حـول اللـه يـارب، أعلـم أن مـا أقولـه ليـس عقـلاني، لكنـي فعـلا لم أرَ مثلهـا...

«نعـم سـمعت أنهـا كانـت حامـل وقـت الحـادث، لكـن بطنهـا لم تنتفـخ أبـدًا ولم أرَ أثـرًا لسـقط أو نبـش لقـبر صنعتـه لوليدهـا. اللـه أعلـم بالحقيقـة...

«أمـر عليهـا يوميًـا وألقـي السـلام. لكنهـا لا تـرد أبـدًا، وكأنهـا في ملكـوت خـاص. تعـالي معـي، لا تخـافي.. هـي ليسـت مؤذيـة. هـي لا ترانـا ولا تشـعر بنـا...

«حـين أقـرأ القـرآن في مقبرتهـم كل جمعـة بعـد الصـلاة، تتوقـف عـن مناجاتـه وتعتريهـا سـكينة تمتـد لتشـملني. في

الحقيقة، أواظب على القراءة من أجل هذه السكينة. لو عدتي يوم الجمعة ربما تحصلين على جزء منها...

«ما هذا الذي تقولين يا أبلة. هل أصدّق جرائدك هذه وأكذب عيني؟ لابد وأن هناك لَبس في الأمر...

«نعم هذا اسمه واسم عائلته أنا تربي المقبرة وأعرف عائلته فردًا فردًا. لا إله إلا الله. لا إله إلا الله. إن كانت قضت معه في الحادث كما يقول النعي. فمن هذه التي تسكُنْ في المقبرة منذ ثلاثة أعوام. هل أُكذب عيني يا ناس؟. والله إنها بشر من لحم ودم. جاءت معهم ليلة الدفن وأقسمت أنها لن تفارقه وسَكَنَتْ هنا. لا إله إلا الله...

«ما عفريت إلا بني آدم يا ناس. ما عفريت إلا بني آدم.. إنها لا تظهر في الصورة التي التقطيها فعلا! «الست هدى» التي تسكن معنا المقابر منذ ثلاثة أعوام، عفريتة!!!. لا إله إلا الله. عقلي سَيَشِت يا ناس...

«لا أعرف شيئًا عما تقولينه يا أبلة. ماذا تعني الأرواح العالقة هذه؟ ... نعم نعم فهمتك، هي هنا لأنها ليست

مستريحة في رقدتها هناك بعيدًا عنه. آمنت بك يا رب. آمنت بك...

«أسمع عن الحب الذي لا يفرقه الموت، وكنت أظنها تجسيدًا له. زوجة مُحبّة، مات زوجها فانقطعت عن الدنيا وسكنت مقبرته، تحدثه ليل نهار وكأنه حيٌ يسمعها. لكن أن تهيم «روحها» وتأتي لتسكن المقبرة بجواره حزنًا على فراقهما. هذا أمر لا يستوعبه عقل يا أبلة. آمنت بك يا خالق الأكوان...

«والله حرام. ليت أهله وافقوا على دفنه بجوارها في مقبرة أهلها ليُريحوها. مالذي استفادوه بتفريقهما؟!. لقد توقفوا عن زيارته منذ أمد. والموت يبدو أنه حين اختاره، اكتفى به منهم. لم يمت لهم صغير أو كبير منذ ثلاثة أعوام. لا حول ولا قوة إلا بالله...

«ربما توقفوا عن زيارته خوفًا منها كما تقولين. لم يخبرني أحدهم أبدًا أنها -بسم الله الرحمن الرحيم- ، مع أني كنت أطمئنهم عليها كلما أتوا للزيارة. وأُخبرهم أن عيني عليها...

«وما العمل؟ المسكينة ستظل هنا للأبد. ليست مستريحة

في رقدتها هناك بدونه. لا حول ولا قوة إلا بالله...

«أنتِ شاهدتيها بعينك يا أبلة. الأمر ليس تخيلًا. الكل هنا يعرفها. حتى أهالي باقي الأموات الذين يجيئون بانتظام كل خميس. لا أحد يعرف أنها «سلامٌ قولٌ من رب رحيم»...

«سأحضر لكِ صورة لي، وشكرا يا أبلة، سأشتري الجرنال لأقرا الموضوع. مع السلامة...

«نعم.. عرفت بالأمس والأبلة الصحفية هنا. لم أشأ أن أُخبركم كي لا تخافوا منها أو تؤذوها. الست بيننا منذ ثلاثة سنوات. لم نر منها شرًا أبدًا. اتركوها لحال سبيلها، الله يرضى عنكم. وليساعدني الله ويغفر لي فيما أنوي...

«يا سِت هدى.. لماذا لم تخبريني؟. ما أنتِ فيه لا يرضى به كافر. واللهْ لا يرضى أبدًا بعذابك. يا بنت الناس، سأبحث عن عنوان مقبرة أهلك وسأنقل لكِ عظام الأستاذ ليسكُن بجوارك. الله لا يرضى بتفريقكم أبدًا. فقط أمانة عليكِ.. يوم اللُقا، حين يحاسبني الله عن نبش قبر الأستاذ، دافعي عني وأخبري الأستاذ أن يصفح. والله لا أفعل ذلك إلا كي

أجمع شملكما ولتستريحي يا بنيتي. سأفتقدك والله. لكن غدًا -بمشيئة الله- ستستريحي في رقدتك».

خَضرة اليمامة

إلى / محمد يسري

«أَخـبِرُه أن يهـدّئ مـن روعـه. فعنـد الكيلـو ٢٠، سـتفلت مـن يـده عجلـة القيـادة وسـتنقلب بـه السـيارة». يـصرخ «أبـو منـى» عـلى زميـل الطريـق، ليُخـبره: «بالراحـة يـا زميـل، ربّنـا يسـلّم طريقـك. احـذر الكيلـو ٢٠». ينظـر الزميـل بغضـب نحـو «خـضرة» ويزعـق فيهـا: نَعقتـي في وجهـي يـا غـراب البـين؟ ربنا يكفينـا شرك. تبتسـم «خـضرة» وهـي تُتمتـم: لا أملـك شرًا ولا خـيرًا، مـا أنـا إلا رسـول يـا ولـدي. فقـط قُـد عـلى مهـل واحـذر الكيلـو ٢٠. يسـير الزميـل الـذي حذرتـه «خـضرة» عـلى مهـل وهـو يلعـن الصبـاح الـذي جعلـه يمـر بجـوار ميكروبـاص «أبـو منـى»، ليسـقط فريسـة لغـراب البـين ونبوءتهـا المشـئومة. يغلق الكاسـيت الـذي يصـدح بأغـاني مهرجانـات مبتذلـة، ويبـدأ في ضبـط مـؤشر الراديـو عـلى إذاعـة القـرآن الكريـم. يُخـبره التبّـاع: ركّـز يـا ريّـس في الطريـق، وسـأضبطها أنـا. فيلكـزه في كتفـه: أنـت السـبب، أضعـت الولّاعـة، فاضطررنـا أن نطلـب منـه وِلعـة. وهـا قـد رأتنـا غـراب البـين ونعقـت في وجهنـا. «هـات العواقـب سـليمة يـا رب. وحيـاة النبـي حبيبـك يـارب». يسـتدير

صارخًا في التبّاع: اطفئ هذه السيجارة يا قحب. الملعونة قالت أن النقل ستنقلب بنا وأنت لازلت تدخن الحشيش؟. الله يلعنك.

يُكبّر سائق النقل حين يرى على مرأى البصر -عند الكيلو ٢٠- سيارة نقل مقلوبة على الطريق. نجونا يا ولد. سبقنا غيرنا للقدر المحتوم التي نبأت به المبروكة. يُصدر التبّاع صوتًا حيوانيًا وهو يضحك: أصبحت مبروكة الآن يا ريس كانت غراب البين منذ دقائق. يستشيط السائق غضبًا ويصرخ فيه: ألم تقل أن نقلاً سينقلب عند الكيلو ٢٠ وصدقت يا قحب؟ إذن مبروكة وتعلم من الله ما لا نعلم.

يصرخ التبّاع: احذر يا ريّس احذر.....

يقترب «أبو منى» من الكيلو ٢٠. ينظر للسيارَتين المهشمتين ويخبط كفًا بكف: لا حول ولا قوة إلا بالله، حذرناه وطلبنا منه أن يتوخى الحذر. لكنه لم يستمع. لم يكن ينقص إلا أن نقود النقل بدلاً منه. تُهمهم «خضرة»: مقدر ومكتوب يا ابني. مقدر ومكتوب. يلقيان نظرة حزن وشفقة على كابينة القيادة المتحطمة، فتلتزم «خضرة» الصمت. في حين لا يتوقف «أبو منى» عن الحوقلة والاستغفار والنظر بخوف

لـ «خضرة».

يقول الناس أن قدرة «خضرة» على رؤية الطريق عن بعد زمني، بدأت منذ سنة أو يزيد. فـ«خَضرة» تسكن إحدى القرى المتطرفة التي تبعد عن المركز الرئيسي التابعة له بعشرات الكيلومترات. تخرج يوميًا على الطريق الزراعي علّها تجد من ينقلها معه دون أجرة للمركز، حيث تعمل في بيع الخضروات الورقية والأجبان المصنوعة في المنزل. منذ سنة تقريبا أوقفت سيارة نقل، لم يكن فيها مكان في الصندوق فأجلسها السائق معه في الكابينة الأمامية. الأمر الذي سهّل لها رؤية الطريق. يقول عم «صلاح» -السائق الذي شهد نبوءة «خضرة» الأولى- اعترتها نوبة تجلٍّ كتلك التي تحدث للمريدين في حلقات الذكر والصلاة والإنشاد، ثم اختنق صوتها وهي تردد: يا ساتر يارب يا ساتر يارب. ثُم لم تُفصح عن شيء. لكن بعد ٣٠ كم انفجرت إحدى الإطارات وانحرفت النقل بنا نحو الزراعية. ومن لُطف الله، انقلبت السيارة على جانبها واستقرت مكانها. وقتها سألت «خضرة» هل كان لخوفها واستجلابها لستر الله أي علاقة بما حدث لنا. فأومأت بالإيجاب، وأخبرتني أنها رأت الإطار وهو ينفجر والسيارة تنقلب على الطريق.

شاع الخبر بين سائقي النقل، فخافوا منها وامتنعوا شهورًا عن التوقف لها. لكن «أبو منى»، فكّر في أن يستخدمها. «تركب معي وتتنبأ بحال الطريق، فإن كنت أنا المقصود بالحادث، تُنبهني. فأتوقف أو أغيّر وجهتي. وإن كان زميلاً، لحقت به وحذرته».

«سلامتي أو سلامة غيري، لا تساوي أجرة الراكب التي تضيع عليّ بركوبها معي».

«طوال هذه الشهور، لم يحدث لي شيء. كل نبوءتها تنصب في وِجهة غيري. ربما كان رُكوبها معي «بركة» تمنع عني السوء».

«حاول عم «صلاح» أن يساومني على رُكوبها معه، باعتبار أنه شهد نبوءتها الأولى وأَصَابته، لكني استقتلت في التمسك بها ورفضت رفضًا تامًا. لم أعد أَأْمَن الخروج للعمل دونها، «خضرة» صارت حِجابي الحافظ».

لا يعرف «أبو منى» ماذا تم بالليل. لكنه في أحد الصباحات، لم يجدها في انتظاره عند نقطة الالتقاء المعتادة. وحين فاتَح الرُكّاب في العودة مرة أخري للمَوقف، وركوب

سيّارة أخرى لأنه لن يستطيع إكمال الطريق، علت أصواتهم وأبدوا رفضًا قاطعًا للنزول. كما تطوّع أحد الأشقياء الذين كانوا بين الرُكّاب بتهديده: لو نزلنا من «الميكروباص» لن نتركه سليمًا. فالأحسن أن تمضي لحال سبيلك، وراءنا مصالِح ولا وقت للعَطلة.

في المساء، عَرِف أن السائقين منعوها من الخروج على الطريق، وهددوها إن وجدها أحدهم واقفة في انتظار «أبو منى»، أنهم سيدهسونها ولن يكون لها ديّة. ثم عادوا وأخبروها أنهم لا يرضيهم وقف حالها، ولكن وجودها على الطريق صار يُثير الذعر والشؤم. «حوادث الطريق أمر طبيعي، لكن وجود من يعرف عنها ويُخبرنا.. يجعلنا تحت ضغط عصبي وتوتر. الله يرضى عنكِ امكثي في بيتك معززة مكرمة وسنرسل لكِ «شهرية» واتركينا منا للطريق».

لَزَمت «خضرة» بيتها كما أمروها، وانفرجت أسارير سائقي السيارات على الطريق الزراعي. «كلنا سنموت، لكن لا أحد يريد أن يعرف متى، أو عند الكيلو كام، تاركينها لله وكما تجيء».

لكن نبوءات «خضرة» وحالات التجلّي التي تصيبها لم

تلـزم الغيـب. في أحـد الصباحـات التاليـة فتحـت نافـذة البيـت وقالـت بصـوتٍ عـالٍ: يـا طالـع النخـل. احـذر. احـذر سـاعة العـصر.

ربمـا لم يسـمعها أحـد، وربمـا مـن سـمعوها لم يعـيروا اهتمامًـا لكلـمات غامضـة لا تعنـي شـيئًا.

لكـن، حـين نـادى المنـادي قبـل صـلاة المغـرب، عـلى ميـت مـن بيـت أبـو هيبـة وشـاع في القريـة أنـه سـقط مـن فـوق النخلـة.. شـاع الخـبر في البلـد سريعًـا، غـراب البـين نعـق عليـه فيـه الصبـاح.

كل البيـوت تناقلـت الخـبر وانتـشر بينهـا سريعًـا، كـما انتشرت النـار المسـتعرة في حطـب بيـت «أبـو نـاصر» اليابـس. كانـت قد اسـتيقظت ذات صبـاح وهـي تـردد: حـذار مـن طـرف رداءك، النـار سـتلتهمه. اجمعـي جلبابـك وضعيـه في حِجـرك.

في المساء، كان بيت «أبو ناصر» خرابًا.

«أخرجوهـا مـن قريتكـم». هكـذا قـال الرجـال في المنـادِر. وأمّنـت النسـوة عـلى ذلـك. غـير أنهـم عـادوا وتراجعـوا. اسـتحرموا أن يَبلـوا بهـا قريـة أُخـرى. كـما أنهـا لا تعـرف مكانًـا

آخـر، ولـن يُـرضي اللـه أن تُـشرَد عـلى آخـر زمانهـا. وربمـا يكـون في إخراجهـا فتـح لطاقـة جهنـم.

يقولـون أن أم نـاصر هـي مـن أشـارت عليهـم بتلـك المشـورة. ورأت في ذلــك حــلاً ســحريًا. «نأمــن نعيقهــا في وجوهنــا ولا نخرجهـا مـن دارهـا ونجـور عليهـا». لقـت مشـورتها استحسـان الجميــع، رجــالاً ونســاءًا. لكــن «قابلــة» القريــة هــي مــن نفـذت...

لا يعـرف الصغـار عـن «خـضرة» سـوى أنهـا المبروكـة الخرسـاء التـي تسـكن ناحيـة «الـتُرب» ويتحاشـاها أهل القريـة ويرفضون الإشـارة لهـا في أي حديـث. لكـن ذلـك لم يمنعهـم مـن الذهـاب يوميًـا حتـى دارهـا. يقذفـون النافـذة بالحـصى وينـادون عليهـا. فـإذا مـا خرجـت لِتطاردهـم بسـبابها غـير المفهـوم. أخرجـوا لهـا ألسـنتهم واندفعـوا يـرددون: خَـضرة هَابـه هَابـه.. في محاولـة منهـم لتقليدهـا.

صلصلة الفراشات

تتحرك أجنحة الفراشات المثبتة أعلى الباب لتشي بدخول أحدهم إلى المكتبة، أهم بوضع الكتاب على الرف والالتفات للترحيب بمن أتى، فتسبقه رائحته المميزة لتُعرّف به. أتأرجح بين إكمالي لما أفعل وبين الالتفات إليه وكأني لا أعلم من هو، فيباغتني بالوقوف إلى جواري. أبتسم له وأسأله عن حاله، فيضيء وجهه وهو يردد: أنتِ هنا.. يالها من مصادفة رائعة !

يعرف هذا الرجل جيدا كيف يغيظني و يشعل غضبي. أجز على أسناني وأبتسم وأخبره في هدوء البراكين الخامدة: وهل تعلم أن هذه المكتبة ملكي أم أن هذه المعلومة ستتسبب لك في صدمة جديدة؟. يقهقه وهو يرد لي الصاع بمهارة لاعب محترف يعرف ما هو مُقدم عليه جيدًا: ما أقصده أنكِ لا تتواجدين أبدًا يوم الثلاثاء. لذا بدا وجودك هنا الآن مصادفة رائعة. كدت للحظة أن أبتلع الكذبة وأعتذر لالتباس الأمر عليَّ، بيد أنه خطر ببالي أن الملعونة «شهيرة» لابد وأنها أخبرته أني هنا اليوم، لذا جاء يتبختر

كطاووس مدعيًا أنه لا يعلم بأمر وجودي.

انصرف عنّي يفتش في الأرفف عن كتاب أعرف يقينا ودون أن يسأل عنه أنه ليس موجودًا. أتجه أنا نحو طفلتي العزيزة التي لا أعلم كيف كانت الدنيا لتكون لو لم يخترعوها، أبدأ في إعداد كوب الكابتشينو الـ ... الذي لا أعرف عدده وأنتقل به وراء طاولتي. يجيء حاملاً في يده «الطنطورية»، ويسألني عن «ولدت هناك، ولدت هنا».

أمنع نفسي من الضحك بعد أن صدق حدسي، فهو يعلم جيدًا أن هذا الكتاب يصعب توافره، وها هو كان يبحث عنه. أكرر عليه ما أكرره في كل مرة يسأل فيها عن هذا الكتاب، فيتمتم : سآخذ هذا الآن و سأفعل لاحقًا. يمنحني ثمن الكتاب وهو يسأل -كالعادة- أن أمنحه عود بخور من المتواجدين أمامي كي يشعله في السيارة. أتضرر من هذا الطلب وأهم بأن أرفض ثم أتراجع وأهز كتفي لا مبالية وأمنحه إياه وأنا أَعدُ نفسي بأن أشتري نوعًا آخر أعطيه منه كلما سألني. فمنذ أخبرني أن كل النساء تفوح منهن عطور مختلفة تعبر عن أمزجهتن أو نفاد عطور واستحضار أخرى، إلا أنا.. دائمًا وأبدًا تفوح مني رائحة واحدة مميزة،

يمتـزج فيهـا بخـور الصنـدل خاصتـي مـع نكهـة الكابتشـينو الـذي أشربـه ليـل نهـار، وأنـا أكـره طلبـه بـأن أمنحـه في كل مـرة يـأتي فيهـا عـود بخـور ليشـعله في السـيارة.

يحمـل كتابـه وقسـيمة شرائـه وعـود البخـور ويبتسـم لي ويرحـل مُخلفًـا وراءه أجنحـة فراشـات ترفـرف وأدرينالـين يتدفـق.

«أنـا لسـتُ سـاذجة لأغفـل المعنـى المبطـن. هـو يحـاول إقنـاع نفسـه أنـه يحملنـي معـه في كل مـكان وخاصـة لـو كان حميميًّـا كسـيارته التـي تصـدح فيهـا «أنغـام» طيلـة الوقـت تنصحنـا بـ «القالـك حـد».. لا أعلـم لمـاذا أخبرتنـي اللعينـة «شـهيرة» بأمـرٍ كهـذا. أكانـت تأمـل أن تزيـد مـن رصيـده لـديَّ إذا مـا عرفـت عـن حبـه لـ «أنغـام» ولهـذه الأغنيـة بالتحديـد ؟!!. يـا اللـه.. لو أنهـا تتوقـف عـن محاولاتهـا المسـتميتة للتوفيـق بيننـا، كيـف لي أن أقنعهـا بذلـك وهـي تـرى فيـه فـارس الأحـلام المثـاليّ. ربمـا هـو كذلـك، ولكـن ليـس لي. غـدًا سـأخبرها إن كان يعجبهـا لهـذه الدرجـة فلتطلـب الطـلاق مـن أخـي وترمـي بشـباكها عليـه. أعـود وأضحـك مـن هـذه الفكـرة، فـ «شـهيرة» المتكلمـة اللبقـة، هـزت رأسـها بالإيجـاب حـين عـرض عليهـا أخـي الـزواج.

هـزت رأسـها دون أن تجـرؤ عـلى رفـع عينيهـا في وجهـه. ودون أن يعلـم هـو أنهـا أحبّتـه في صمـتٍ لثـلاث سـنوات».

هـا هــو يسـتحضرها الآن.. « أنغـام» العزيـزة عـلى قلبهـا وقلبـه تصـدح في السـيارة المغلقـة النوافـذ، كتابـه الجديـد الـذي أمسـكته بيدهـا فتركـت عـلى غلافـه بصماتهـا يجلـس بجـواره، رائحتهـا المختزلـة في عـود بخـور تعبـق الأنحـاء.

يتملكـه الغضـب فجـأة ويتمتـم لنفسـه: ياللـه.. مـا هـذا الـذي أفعلـه ومـا الـسر الكامـن فيهـا والـذي يجعلنـي أتـصرف كمراهـق يقـع في الحـب لأول مـرة؟!. و لمـاذا لم أنـصرف عنهـا بعـد كل هـذا الصـد مـن جانبهـا !!

يتملكـه غضـب حقيقـي.. يدفعـه لفتـح النوافذ وكأنـه يصرفها. يُسـكت «أنغـام». ويقـرر أنـه لـن يذهـب ثانيـةً إلى هنـاك.. سيشـتري كتبـه عـبر الإنترنـت، وإذا كانـت تسـتمتع بملاعبتـه بهـذه الصـورة، فقـد حـان الوقـت لتغيـير قواعـد اللعبـة.

تُخبرهـا «شـهيرة» بصـوتٍ هـادئ ورصـين أن الأمـر ليـس كـما تـراه مـن زاويتهـا.. فهـي لا تتعامـل معهـا عـلى أسـاس أنهـا أخـت زوجهـا العانـس التـي ترغـب في تزويجهـا.. تُذكّرهـا: أنـتِ

صاحبة عمري يا «ليلى»، أعلم عنكِ ما لا تظنين أني أعلمه وأرى أنكِ تستحقين بهجة حقيقية، لا تلك المزيفة التي يمنحها لكِ كوب كابتشينو وعود صندل وكتاب.. الحياة تُرغمنا على المضي قدما فلماذا تريدين أن تخرقي قانون الحياة؟!

تسألها «ليلى» ببرود: هل في عدم ميلي إليه و الرغبة في مجاراته خرق لقانون الحياة..؟.

تصرخ «شهيرة» في وجهها: لا تتلاعبي بي يا «ليلى»، تعلمين جيدا أني لا أتحدث عنه، و إن كنتُ لن أسامحك هذه المرة إن تركتيه يذهب.

تتمتم «ليلى» بصوت غير مسموع: أظنه ذهب بالفعل. ولن تكوني أول من يفعل، أنا اعتدتُ التعايش مع الإحساس بالذنب.

لابد أنه سيحضر، فما كان لمهووسٍ بالأدب أن يُخلف أمسية كهذه. اعترفي لنفسك يا «ليلى» هل تصدقين تلك التميمة التي يرددها لسانك منذ أول النهار: أرجوك لا تجيء.. لا تُفسد يومي، و إن كنت تُصدقينها فلماذا ترهفين السمع

لأجنحة الفراش؟ على من تكذبين؟ ألم تكتفي من محاولاتك المستميتة طوال هذه السنوات للتطهر من ذنبك البعيد!. أشغل نفسي بمتابعة تفاصيل اليوم. لا أمنح نفسي الفرصة للتفكير، حتى إذا ما جاء أخيرًا و هز رأسه لي وسلّم بحرارة على «شهيرة» وذهب ليجلس في الصف الأخير، لم ألتفت إليه ولو لمرة واحدة بالرغم من أن قلبي لم يشح بنظره عنه !. حين انتهت الندوة ولم يتلكأ كعادته ورحل، شعرتُ بخيبة أمل لا يجب أن أشعر بها، نحّيتها جانبًا ودُرت مع «شهيرة» كنحلتين تريدان الانتهاء من ترتيب الخلية علّ وقت الراحة يحين.

لا أعرف هل كانت خيبة الأمل بادية على وجهي فرقّ قلب «شهيرة» لي ولم تشر إليه من قريب أو بعيد، أم أنها ألقت طوبتي بعيدًا واستسلمت!. لم أسأل ولم أُبدِ اهتمامًا، وحين سألتني إن كنت سأرحل معها أم سأنتظر قليلاً كي أشعل بخوري وأعيد لأرففي رائحة الكابتشينو التي استنفزتها أنوف الزوّار.. ضحكت وأخبرتها: بالضبط.. لا يمكنني الرحيل دون إلقاء تعويذتي اليومية.

قبّلتني وحملت قبلاتي للصغيرين ورحلت. أترجل قليلاً في

الأنحاء، أدور على الأرفف ألمس خشبها بصورة توحي لمن يشاهدني أني ألقي عليها حقًا بتعويذة خفية. اتجهتُ نحو صغيرتي وبدأت في إعداد مشروبي المقدس، و لا أدري -و لن أدري أبدًا- كيف تواطأت فراشاتي .. معه.

ألتفت فجأة لأجده واقفًا بكل أريحية مستندًا بظهره على بابٍ مغلق، تتراقص فوقه فراشاتي في صمتٍ مهيب خوفًا من أن تفسد جلال اللحظة.

هل فزعتُ -حين وضعت يدي على قلبي- لأنه عاد؟ أم لأني شعرت أني استحضرته بتفكيري فيه فالتقط هو إشاراتي وحضر من حيث لا أدري؟. أسأله بنبرة اتهام: مالذي عاد بك وكيف دخلت؟

يُخبرها أنه نسيّ نسخته الموقعة وهاتف «شهيرة» فأخبرته أنها لازالت هناك فعاد للبحث عنها. يضحك هازئًا من سؤالها: ومما لا شك فيه أني لم أدخل من الشباك يا ليلى!

ها هي شهيرة تفعلها مرة أخرى أسبّها في سري، وأسأله أي بابٍ هذا الذي دخلت منه؟ بابي هذا؟ وكيف لم أسمع صلصلة الفراشات حين فُتح الباب؟

يُخبرها بغير مبالاة: لأنكِ لم تكوني هنا. أنا هنا منذ فترة، أنتظر أن تفيقي من شرودك و تنتبهين لي.

أرد في غضب من ضُبط متلبسًا بجرم ويدفعه عنه: لم أكن شاردة للدرجة التي تحجب عني دخولك وصوت الفراشات. الأمر محير. لكن لا بأس، دعني أبحث لك عن كتابك كي.....

أرحل ؟!! يرددها هو بالنيابة عنها. يُغادر بقعته التي ظنّتُ أنه لن يبرحها إلى الأبد ويتجه نحو أقرب طاولة ويجلس. يُخبرها أنه لن يرحل دون سببٍ مقنع يبرر له صدّها.

تتركه مذهولة و تتجه نحو صغيرتها، وتبدأ في اعداد الكابتشينو.. وهي تسأل نفسها: ما هذه الثقة التي يتحدث بها؟ بإمكاني أن أصرخ فيه و أنهره وأطلب منه الرحيل والكف عن التضييق عليّ دون إبداء أسباب. أنا لستُ ملزمة بإبداء أسباب. لكنها لم تفعل. يجذب ظهر المقعد لها فتتهاوى عليه. يجلس أمامها ويُخبرها أنه لن يُقاطعها حتى تنتهي.

تنظر له وتردد بيأس: أنتَ أصغر مني. تقولها وهي

تعلم أنه سبب غير كاف. يعقد حاجبيه و يثبّت نظره عليها ويتمتم: حقا!. أبدو للعيان أكبر منكِ بخمس سنوات على أقل تقدير !

تعود لتقول: لستُ أكبر منك بعام أو اثنين.. أنا أكبر منك بسبع سنوات، أكبر منك بعمرٍ كامل !

يبتسم وهو يجيبها: قد يبدو هذا الأمر جللًا لو كنا في عشرينياتنا يا «ليلى»، أنا فارقتُ الثلاثين منذ شهور وتعلمين ذلك. يبدو عذرك واهنًا فاختاري غيره.

تغضب من رده اللامبالي وتخبره : وهل تظن أنك بثلاثينيتك هذه قد بلغت سنًا يُمكّنني فيه من الاعتماد عليك ناهيك عن غض الطرف عن فرق السن! ثلاثينيتك تلك ليست شهادة ضمان أو حصن أمان، أنا أكره الرجال في الثلاثين!. قالتها وهي موقنة أنها وضعت نقطة في آخر السطر.

يُقرر أن يُخرج آخر أوراقه ويُخبرها: حسناً يا «ليلى».. لن أسألك توضيحًا. و إن كان يبدو جليا شبحٌ لرجلٍ - آخر- في الثلاثين ما زال يحاصر حاضركِ -كما حاصر ماضيكِ- و لم

يُطلُقكِ بعـد.

لكنـي لسـتُ ذلـك المتملـق الـذي سـيقتربُ منـكِ و يمسـك بيـدك و يخـبركِ أنـه ليـس كغـيره. لأني أظنـك الآن قـد كـبرتِ عـما كنـتِ عليـه حـين تعرفـتِ عـلى ذلـك الآخـر - ذي الثلاثـين- و تعلمـين أن أصابـع اليـد الواحـدة.. تتفـاوت.

ينهـض مـن مكانه و يسـتعد للرحيـل، ثم يلتفت فجـأة ليخبرها بصـوت خفيـض: فقـط للعلـم.. أنـا لا أحـب الكابتشـينو. أشرب قهـوتي مُـرة ومغليـة. لا أتملـق النسـاء ولا أتكلـم كثـيرًا. أجيـد التقـاط الإشـارات وفهمهـا. وسـأتوقف نهائيًـا عـن المحاولـة إذا طلبتـي منـي ذلـك صراحـةً. اسـأليني إياهـا و سأفعـل.!

ترفـع رأسـها و تحـدّق فيـه وللحظـة، يظـن كلاهـما أنهـا سـتفعل.. لكنهـا لا تفعـل.

أصـل إلى البيـت متأخـرة. أتـرك لـ «شـهيرة» رسـالة أطلـب فيهـا أن تحـل محـلي غـدًا في المكتبـة فأنـا متعبـة. أغلـق هاتفـي في محاولـة للهـرب مـن فضولهـا الـذي سـيظل يلاحقنـي طـوال اليـوم.

أسـتيقظ مبكـرًا عـلى عكـس مـا كانـت تـشي بـه الليلـة

السابقة. أتناول فطوري و أخرج للبحث عن الشمس في شوارع القاهرة القديمة. أذهب لجامع السلطان حسن، و أتذكر وقت أن كنت أرتاده بصورة شبه يومية منذ سنين. حين كان تواجدي في أرجائه يرتق روحي التي لم تكن قد اهترئت لهذا الحدّ. أرتكن إلى حائط من حوائطه وأغمض عيني. أنتبه على صوت رفرفة أجنحة الحمام. أبتسم وأنهض وأنا أشعر أن أحدهم مد يده إلى صدري وغسل قلبي بصورة ما لا أعرف كنهها.

طوال طريق العودة أسترجع القصة القديمة التي لعبت فيها دور البطولة. أسترجعها مئات مرات فلا يطالعني غير الوجه القبيح للخسارة ..

«منذ عشرين سنة آمنتُ أن رجلاً في الثلاثين لن يُعرضني لما قد يجره عليّ الارتباط بشاب صغير من سني. لكن الخذلان علّمني درسه الأول وجاءني على يده.

«أنا أكره الرجال في الثلاثين.. ثلاثينياتكم تُذكرني بعرج روحي وأثر الكدمة الزرقاء التي لم تتلاشى برغم مرور عشرين سنة. ..

«ربما كان لابد وأن يحدث لي ذلك. أنا خذلت أحبّتي من أجله، فكان لِزاما عليه أن يخذلني».

يستمع لما تقول ويتركها تفرغ ما في جوفها وعينيها كما تشاء. يكتشف أن المرار يغلّف روحها، وأن الأمر ليس صدًّا أو تدلل كما ظنّ. الأمر أعقد وأعمق وأمرّ بكثير. يُفكّر في مدى قدرته على دعمها ومساندتها. هل لديه الطاقة؟ الحب؟ قوة التحمل؟ طول النَفَس؟. لا يعلم ولم يعد متيقنًا من أنه يستطيع حمل هذا العبء عن روحها المثقلة. يربت على يدها ويُخبرها أن الجميع -لا شك- سامحها، هيّ فقط من لم تُسامِح نفسها. وأن لا أحد يستطيع الآن مساعدتها. ساعدي نفسك يا ليلى؟ رددها مرتين وهو يدفع كرسيه لينهض. للحظة تسمّرت وهي تكتشف أنه يرحل. لكنها ابتسمت وتنهدت الصعداء. أخبرها أنه لن يفعل كما فعل غيره من قبل. لن يعدها بشيء لا يستطيع الإيفاء به. وهو لا يعلم إن كان بمقدوره أن يحمل عنها عبئها وأن يحلّي المرار الكامن في روحها. تشكره لأنه لم يتظاهر بخلاف ما شعُر به. تنهض هي الأخرى وتُسلّم عليه ويمضيان في عكس الاتجاه.

في اليـوم التـالي، أهاتـف عيـادة الطبيـب النفـسيّ لأحجـز موعـدًا. أتـرك البيـت قبـل الموعـد المحـدد بسـاعتين. أتجـه نحـو المقابـر. أقـف أمـام قـبر أمـي وأقـرأ الفاتحـة. أخبرهـا بصـوت يغلفـه قليـل مـن الارتيـاح: إنهـا «الكارمـا» يـا أمّـي. خذلتُـك، فخذلنـي، وانتهـت الدائـرة. أنـا فقـط مـن أجلـد ذاتي منـذ خمسـة عـشر سـنة دون داع. أخطـأت وعوقبـت، وأظـن أنـه حـان الوقـت كي أُسـامِح نَفـسي وأبـدأ مـن جديـد.

شكر خاص

لـ أحمد عبدالحفيظ..

الصديـق الصـدوق، رفيـق الطريـق.. الـذي يُعـاني الأمرّيـن معـي في دفعـي نحـو الكتابـة ومراجعـة كل مـا أكتـب -في أي وقـتٍ أُراسـلْهُ فيـه- بإخـلاص وحـب كـما لـو أنـه يخصّـه.

فهرس

دوائر ٧

الرسول الغريب حامل السكينة ١٧

جحافل الذباب ٢٥

الغول ٣١

تكوّر ٣٩

النبوءة ٤٥

على رؤوسهم الطير ٥٣

نوبة سعال ٥٩

النشوة ٦٩

عابرو نافذة ٧٧

عرض ليلي ٨٣

شهوة الاستسلام ٩١

أم الوليّ ٩٩

سَكنْ ١٠٧

خضرة اليمامة ١١٥

صلصلة فراشات ١٢٥

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك
وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 - 01001872290 - 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :

kayanpublishing kayan.publish

kayanpublishing kayan_publishing